أنطون تشيكوف

قصة رجل مجهول

تعريب محمود الشنيطي



دار الكاتب المصري

قصة رجل مجهول



أنطون تشيكوف

قصة رجل مجهول

تعريب محمود الشنيطي



دار الكاتب المصري

الطبعة الأولى . . . ديسمبر ١٩٤٧

العنوان الأصلى للكتاب
بالانجليزية

ANTON TCHEKOV

AN ANONYMOUS STORY

١

اضطررت لأسباب ليس هذا وقت تفصيلها أن أدخل فى خدمة موظف بطرجى اسمه أورلوف . كنت أعمل خادماً له ، وكان فى قرابةالخامسة والثلاثين ، يدعى جورجى إيفانتش .

تقدمت إلى خدمة أورلوف هذا إذ كان والده سياسياً نابهاً أراه خصما عنيداً لمبدئى السياسى . وقد ظننت أنى باقامتى مع ابنه ، أستطيع من الأحاديث التى أسمعها ، ومن الخطابات والأوراق التى أجدها على المائدة ، أن أعلم كل صغيرة وكبيرة من خطط الأب ونياته .

كان الجرس الكهربائى يرن بغرفتى فى الساعة الحادية عشرة ليدلنى على أن سيدى قد استيقظ . فإذا ذهبت إلى غرفة النوم بحذائه الملمع وثيابه المنظفة ، وجدته جالساً على فراشه لا يبدو على وجهه أثر الوسن ، بل أثر الاجهاد من النوم ، وهو يحدق فى ناحية ، ولا يظهر عليه الرضا باليقظة . كنت أعينه على ارتداء ملابسه ، فيدعنى أفعل ذلك فى شئ من الازدراء ، ودون أن يتكلم أو يلحظ وجودى . ثم يذهب إلى غرفة المائدة ورأسه مبتل ينفح بالعطر ، وهناك يشرب القهوة . كان يجلس

إلى المائدة يرشف قهوته ويتصفح الجرائد ؛ بينما أقف أنا والخادم بوليا عند الباب فى احترام نحدق إليه . كان على شخصين راشدين أن يقفا و يرقبا بعناية فائقة شخصاً ثالثاً يشرب القهوة و يمضغ الكعك . قد يبعث ذلك على الضحك والسخرية ، ولكنى لم أكن أرى فى وقوفى إلى جانب الباب ما يزرى بى ، و إن كنت مثل أورلوف نفسه محتداً وثقافة .

كنت مريضاً بالسل فى أولى مراحله ، وكنت أعانى من شئ آخر ، ربما كان أدهى من السل . لست أدرى أكان ذلك من أثر العلة ، أم لأن فلسفتى فى الحياة أخذت تتبدل تبدلا لم أكن أعيه إذ ذاك ، ولكن شغفاً جارفاً مثيراً بالحياة اليومية العادية راح يستولى على يوماً بعد يوم . كنت أتوق إلى الهدوء الذهنى ، والصحة والهواء النقى والطعام الجيد . بدأت أغدو رجلا حالماً ، وأصبحت — شأن الحالم — لا أعرف بالدقة ما أريد . فحيناً أود لو ذهبت إلى دير ، أجلس فيه أياماً إلى جوار النافذة ، أرنو إلى الأشجار والحقول ؛ وحيناً أفكر فى أن أشترى خمسة عشر فداناً وأعيش فيها كالسيد الريفى ؛ وحيناً أعاهد نفسى على أن أشتغل بالعلم وأصبح أستاذاً فى إحدى جامعات الأقاليم . وكنت ملازماً بحرياً متقاعداً، فكنت أحلم بالبحر ، وبعمارتى ، وبالسفينة التى طفت بها حول العالم . وكنت أحن من جديد إلى التجربة ، إلى ذلك الشعور الذى لا يوصف ، يحسه المرء وهو يسير فى الغابة الاستوائية ، أو يشهد الغروب فى خليج البنغال ، فتهزه إلى الوطن النشوة

والحنين معاً . كنت أحلم بالجبال والنساء والموسيقى ، وأنظر إلى وجوه الناس فى تطلع الطفل ، وأنصت إلى أصواتهم . وحين كنت أقف بالباب وأرقب أورلوف وهو يرشف قهوته ، لم أكن أحس أنى خادم بل رجل يشوقه كل ما فى الوجود حتى أورلوف .

كان أورلوف فى مظهره مثالا للبطرجى ، فهو ضيق الأكتاف، طويل الخصر ، غائر الصدغين ، ذو عينين لا تقطع فيهما بلون ، وشعره أغبر قليل ، وله لحية وشارب ، وكان وجهه أكمد منفراً ، وإن اشتدت عنايته به . تظهر نفرته بخاصة حين ينام أو يستغرق فى التفكير . وبعد فليس ما يدعو إلى أن نصف طلعة جد عادية ، ثم إن بطرسبرج ليست أسبانيا ؛ فليس لطلعة الرجل كبير شأن حتى فى أمور الحب ، والحسن لا يطلب إلا فى خادم أو سائق عربة . وإنما تحدثت عن وجه أورلوف وشعره ، لأن مظهر أورلوف فيه شئ يستحق الذكر . فهو حين يتناول صحيفة أو كتاباً من الكتب ، أو حين يلقى أناساً من الناس ، تلوح فى عينيه بسمة استهزاء ، ويشيع على وجهه تعبير من السخرية لا يشف عن حقد . كان يعد السخرية دائماً لكل ما يسمع وما يقرأ كما يعد المتوحش مجنه . كانت سخريته عادة جرى عليها ، فكأنها خمر عتقت منذ أعوام ، فهى تعلو وجهه الآن وقد لا يكون لإرادته دخل فى ذلك ، فكأنها فعل منعكس . ولكنى سأتحدث عن ذلك فيما بعد .

كان يأخذ حافظته المليئة بالأوراق ، بعد الظهر بقليل ويذهب إلى مكتبه ، وكان يتناول عشاءه خارج المنزل ويعود بعد الثامنة . وكنت أوقد المصباح والشموع فى حجرة مكتبه ويجلس هو فى كرسيه الواطئ وقد مد ساقيه على كرسى آخر ، ويضطجع فى جلسته ثم يأخذ فى القراءة . كان يأتى فى أكثر الأيام بكتب جديدة ، أو تأتيه رزم منها من المكاتب ، فكانت هناك أكوام من الكتب بلغات ثلاث — هذا عدا الروسية — قرأها ثم ألقاها فى أركان غرفتى وتحت فراشى . كان يقرأ بسرعة غريبة . يقولون : « أخبرنى بما تقرأ ، أخبرك من أنت . » وقد يكون ذلك صحيحاً ، ولكنه يستحيل أن نحكم على أورلوف بما يقرأ . كان يقرأ أخلاطاً : فلسفة وأدباً فرنسياً واقتصاداً سياسياً ومالية ، وشعراء محدثين ، ومنشورات من دار بوزردنك[1] — كان يقرؤها جميعاً بسرعة واحدة ، وفى عينيه ذلك التعبير الساخر .

كان بعد الساعة العاشرة بقليل يرتدى ملابسه بعناية — وهى ثوب السهرة غالباً وقل أن يرتدى بزه الصالون الألمانية — ويذهب ليعود فى الصباح .

كانت علاقاتنا هادئة وادعة ، ولم يحدث بيننا قط خلاف ، وكان — فى العادة — لا يلحظ وجودى ، فاذا حادثنى لم يرتسم

---

(١) دار نشر كانت تطبع الكتب الأدبية طبعات شعبية تذيعها فى الفلاحين .

على وجهه شيء من السخرية — إنه يكن لم يعتبرنى فيما يظهر واحداً من البشر .

لم أره غاضباً غير مرة واحدة ، وكان ذلك بعد أسبوع من خدمتى عنده ، فقد عاد يوماً فى الساعة التاسعة بعد أن تعشى فى مكان ما ، وكان يبدو على وجهه الضيق والإجهاد . قال حين تبعته إلى حجرة المكتب لأوقد الشموع :

— فى المسكن ريح كريهة .

أجبت :

— كلا . إن الهواء نقى .

قال محتداً :

— قلت لك إن هناك ريحاً كريهة .

— أنا أفتح النوافذ كل يوم .

صاح بى :

— لا تجادل يا غبى .

كدت أجيبه ، ويعلم الله ما كان يؤدى إليه ذلك ، لولا تدخل بوليا التى كانت أعرف بسيدها منى . قالت وهى ترفع حاجبيها :

— هناك لا شك ريح كريهة . كيف أنت ؟ افتح يا استيفان زجاج الثوى وأوقد النار .

وذهبت تجوس خلال الغرف كلها وهى تصيح متعجبة ، وتجرجر أذيالها ، وتنفث العطر من الرشاشة . ولم يكن الضيق قد زايل أورلوف بعد ولكنه كان يكبح ضيقه كبحاً . كان

جالساً إلى النضد يسرع فى كتابة رسالة ، وبعد أن خط بضعة سطر ، زفر غاضباً ومزقها ، ثم بدأ فى الكتابة من جديد . تمتم :

— لعنهم الله جميعاً ! إنهم يريدون أن تكون لى ذاكرة خارقة .

كتب الخطاب أخيراً ، ونهض عن النضد وقال وهو يلتفت إلى :

— إذهب إلى شارع زنامنسكى ، وسلم هذا الخطاب إلى زينايدا فيودورفنا كراسنوفسكى يداً بيد . واسأل البواب أولا عما إذا كان زوجها — أعنى السيد كراسنوفسكى — قد عاد . فاذا كان قد عاد فلا تسلم الخطاب وارجع . انتظر دقيقة ! . . . إذا سألتك أعندى هنا أحد ، قل إن معى سيدين منذ الثامنة يكتبان شيئاً .

ركبت عربة إلى شارع زنامنسكى ، فأخبرنى البواب بأن السيد كراسنوفسكى لم يعد بعد ، فصعدت إلى الطبقة الثالثة حيث فتح لى الباب خادم طويل عريض أسمر أسود العارضين ، وسألنى عما أريد بصوت وسنان غير آبه ، هو الصوت الذى يختص به الخدم حين يحدثون أمثالهم ، وقبل أن أجيب دخلت تهرول إلى القاعة سيدة ترتدى السواد . خزرت عينيها ونظرت إلى .

سألت :

— هل زينايدا فيودورفنا بالمنزل ؟

قالت السيدة :

— أنا زينايدا .

— إليك خطاباً من جورجى إيفانتش .

فضت الخطاب نافدة الصبر ، وقد أمسكته بكلتا يديها حتى رأيت خواتمها الماسية البراقة ، وبدأت تقرأ . بدا لى منها وجه شاحب ناعم الملامح ، وذقن بارز وأهداب طويلة سود . لم يكن مظهرها يدل على أنها تعدو الخامسة والعشرين .

قالت حين انتهت من تلاوة الخطاب :

— بلغه شكرى وتحياتى .

ثم سألتنى بلطف ومرح وهى كالخجلة من سوء ظنها :

— أهناك أحد مع جورجى إيفانتش ؟

قلت :

— سيدان . يكتبان شيئاً .

فعادت تقول :

— بلغه تحياتى وشكرى .

ومالت برأسها وغادرت المكان بهدوء وهى تقرأ الخطاب فى سيرها .

كنت قد رأيت فى ذلك الوقت نساء قليلات ، فأثرت فى نفس هذه السيدة التى لم أر منها غير لمحة عابرة ، وأخذت وأنا عائد إلى الدار أسترجع محياها ، والعطر اللطيف المطيف بها ، واستولت على الأحلام ، وحين وصلت إلى المنزل كان أورلوف قد غادره .

٢

هكذا كانت علاقاتى بمخدومى هادئة وادعة ، على أنى كنت أحس كل يوم بالدنس والهوان اللذين خفتهما حين أصبحت خادماً . لم أتفق مع بوليا ، وكانت فتاة لفاء سمينة ، تعبد أورلوف لأنه سيد ، وتحتقرنى لأنى خادم . وربما كانت فى نظر الخادم أو الطاهى الحق ، فتاة رائعة ، بخدودها الحمر ، وأنفها الصاعد الأرنبة ، ونظراتها الغزلة ، وامتلائها بل سمانتها . كانت تزين وجهها بالمساحيق ، وتدم شفتيها ، وتزجج حاجبيها ، وتحبك جسمها ، وتصلح قوامها بحشية ، وتلبس عقداً من النقود . كانت تتخطر فى مشيتها ، وتتثنى فى سيرها أو كما يقال ، تهز الأكتاف والعجز . كان حفيف ثوبها ، وأزيز حابكاتها ، ورنين عقدها ، والرائحة المبتذلة التى تنبعث من دماسها الزيتى وعطرها الرخيص ، والطيب المسروق من سيدها — كان ذلك كله يشعرنى وأنا أسوى الغرف معها فى الصباح كأنى أشاركها فى نوع من الإثم .

كرهتنى منذ اليوم الأول ، وربما كان ذلك لأنى لم أكن أسرق مثلها ، أو لأنى لم أبد رغبة ما فى تعشقها ، فرأت فى ذلك إهانة لها ، أو لأنها شعرت بأنى رجل من طبقة غير طبقتها . وكانت قلة تجربتى ومظهرى الذى لا يشبه مظهر الخادم ومرضى، أموراً تبدو لها باعثة على الرثاء ومثيرة للتقزز . كنت إذ ذاك أسعل سعالا قبيحاً ، وكنت فى بعض الليالى أحول بينها وبين

النوم ، إذ لم يكن يفصل بين غرفتينا سوى حاجز خشبى .
كانت تقول لى كل صباح :
— لقد أرقتنى الليلة أيضاً . كان ينبغى أن تكون فى المستشفى لا فى الخدمة .

وكانت لا تكاد تؤمن بأنى بشر مثلها بل شئ أدنى منها درجات . ولذلك كانت — شأن النساء الرومانيات اللواتى لم يكن يخجلن من الاستحمام بمرأى من عبيدهن — ربما مشت أمامى عارية إلا من قميص .

سألتها مرة على العشاء (وكان يأتينا من المطعم كل يوم حساء ولحم مشوى) وكنت فى حال من السعادة والحلم :

— أتؤمنين بالله يا بوليا ؟

— إى . بالطبع !

فمضيت أقول :

— أنت إذن تؤمنين بيوم حساب يسألنا فيه الله عن كل ما ارتكبنا من شر ؟

لم تجب ، بل زوت لى وجهها باحتقار ، وحين نظرت تلك المرة إلى عينيها الباردتين وإلى علائم التخمة البادية عليها ، أدركت أن تلك الشخصية الكاملة التامة لم تكن تعترف بوجود إله أو ضمير أو قانون ، وأنى ما كنت أستطيع أن أبتاع شريكا خيراً منها لو أنى اضطررت إلى اضرام النار فى المنزل أو إلى القتل أو السلب .

شعرت بالضيق فى بيئتى الجديدة ، ومضى على أسبوع

فى بيت أورلوف قبل أن أعتاد ندائى « بأنت » ، واضطرارى دائماً إلى الكذب (فأقول إن سيدى ليس بالمنزل وهو فيه) . كنت أشعر وأنا ألبس سترة الخادم المذيلة كأنى ألبس درعاً ولكنى اعتدتها بعد حين . وكنت كالخادم الحق . أقف عند مائدة الطعام وأسوى الغرف ، وأؤدى الطلبات فى الخارج ، وحين كان أورلوف يريد التخلص من موعد له مع زينايدا فيودورفنا أو حين ينسى أنه وعدها بالزيارة ، كنت أذهب إلى شارع زنامنسكى فأدس فى يدها خطاباً وأكذب كذبة . وقد كانت لذلك كله نتيجة تختلف اختلافاً تاماً عما توقعته حين أصبحت خادماً . كان كل يوم يمضى فى حياتى الجديدة هذه يضيع على وعلى جهادى السياسى ، فإن أورلوف لم يكن يتحدث عن أبيه قط ، وكذا شأن زواره . وكل ما استطعت أن أعرفه من أعمال السياسى كان — شأنه من قبل — مما أجمعه من الصحف أو من مراسلاتى مع رفاقى . ولم يكن لمئات المذكرات والأوراق التى كنت أجدها فى حجرة المكتب وأقرؤها، علاقة ما بما كنت أبحث عنه . كان أورلوف لا يهمه عمل ابيه السياسى فى شئ ، ويبدو كأنه لم يسمع به قط، أوكأن والده قد مات منذ زمن بعيد .

٣

كان يزورنا كل خميس زوار .

فأطلب من المطعم قطعة لحم مشوى ، وأطلب من اليزييف

بالتليفون أن يرسل إلينا بطارخ وجبناً ومحاراً . . . الخ ، وأشترى ورق اللعب . وتشغل بوليا النهار كله فى إعداد أدوات الشاى وصحاف العشاء . ولا أكتمك أن تلك الهزة من النشاط كانت تبدل من حياتنا الكسلى تبديلا لطيفاً . كانت أيام الخميس أحب أيامنا .

لم يكن يأتينا غير ثلاثة زوار . أهمهم ، ولعله أحقهم بالعناية ، ذلك الذى يدعى بيكارسكى — وهو رجل طويل نحيل فى الخامسة والأربعين ، أقنى الأنف ، ذو لحية كبيرة سوداء وفى رأسه شئ من الصلع . كانت عيناه كبيرتين بارزتين ، ووجهه كوجه الفيلسوف اليونانى يرتسم عليه الجد والتفكير . كان عضواً فى مجلس إدارة بعض السكك الحديدية وكانت له أيضاً وظيفة ما فى مصرف ، وكان محامياً استشارياً فى بعض المعاهد الحكومية الهامة وكانت له علاقات خاصة بكثير من الناس إذ كان وكيلا أو كان رئيساً لبعض الهيئات . كانت درجته الحكومية صغيرة ، وكان يقول عن نفسه إنه محام متواضع ، ولكن نفوذه كان كبيراً . كانت الكلمة منه أو البطاقة تكفى لأن تجعل المرء طبيباً شهيراً ، أو مديراً لخط حديدى أو تفتح باب عظيم من العظماء دون انتظار ، وكان يقال إن المرء برعايته يستطيع أن ينال وظيفة فى « الكدر »، وأن تستر له أية فضيحة . وكان الناس يرونه ذكياً حاد الذكاء ، ولكن ذكاءه كان غريباً فريداً ، كان يستطيع فى لحظة أن يضرب ٢١٣ × ٣٧٣ شفاها ، أو يحول الجنيهات الإنجليزية

إلى ماركات ألمانية دون استعانة بقلم أو ورق . كان يفهم المالية وأعمال السكك الحديدية فهماً تاماً ، ولم يكن من السهل التغلب عليه فى القانون ، ولكن ذلك الذكاء الخارق لم يكن يستطيع الالمام بأشياء ربما فهمها بعض الأغبياء من الناس . هو ، مثلا ، لم يكن يدرك لم يكتئب الناس ، ولم يبكون ويقتلون أنفسهم بل غيرهم ، لم يعنون أنفسهم بأشياء لا تتصل بأشخاصهم ، ولم يضحكون حين يقرءون جوجول أو شتشدرين كان كل شئ مجرد ، كل شئ يتصل بعالم الفكر والإحساس ، يسئمه ويستغلق عليه ، كالموسيقى عند رجل لا أذن له . كان ينظر إلى الناس نظرة عملية وحسب ، ويقسمهم إلى أكفاء وغير أكفاء ، ولا وجود عنده لغير هذا التقسيم . ولم يكن الشرف والاستقامة إلا من دلائل الكفاءة . . . والشراب والمقامرة والعهر كلها مباح إذا لم يعترض سبيل العمل . الإيمان بالله نوع من الغباء ، ولكن حماية الدين واجبة ، لأنه ينبغى أن يكون للعامة سلطان يكبحهم ، وإلا لما عملوا . لا يلزم العقاب إلا للتخويف . لا داعى للرحيل فى العطلات فإن المدن نظيفة أيضاً ، إلى غير ذلك . كان أرمل — ولم يكن له أطفال — ولكنه كان يعيش فى سعة كأن له أسرة ، ويدفع ثلاثة آلاف روبل فى السنة إيجاراً لمسكنه .

وكان الزائر الثانى — كوكوشكين ، وهو عضو فى مجلس البلدية وإن يكن شاباً — رجلا قصيراً ، يسترعى النظر بقبح مظهره لافتقاد التناسق بين جسده البدين المنتفخ ووجهه

النحيل الصغير . انفرجت شفتاه فى تلطف ، وبدا شاربه الصغير الشذب كأنه لصق بالغراء . كان رجلا له خلائق الفهد . لم يكن يمشى ، بل قل يزحف بخطوات قصيرة وهو يتوقل ويتضاحك ، فاذا ضحك بدت أسنانه . كان كاتباً مكلفاً ببعض الشئون ، ولكنه لا يعمل شيئاً ، و إن تقاضى راتباً طيبـاً ، و بخاصة فى الصيف ، حين كانت تيسر له بعض الأعمـال الخاصة المربحة . كان رجلا ذا مطامع شخصية ، لا تستقر فى نخاع عظامه بل تغوص إلى آخر قطرة من دمه . ولكنه كان حقيراً حتى فى مطامحه ، ولم يكن يعتمد على نفسه — بل يبنى حياته على أساس النعم التى يغدقها عليه الرؤساء . لم يكن يجد بأساً فى أن يعرض نفسه لصنوف المذلة ، فيرجو ويتملق ، ويعد ، حتى ينال وساماً أجنبياً ، أو يذكر اسمه فى الصحف فى عمل خاص بصحبة بعض الشخصيات الكبيرة . كان يتملق أورلوف و بيكارسكى عن جبن ، إذ يظن لها نفوذاً ، وكان يتملق بوليا ويتملقنى إذ كنا فى خدمة رجل ذى نفوذ . مانزعت عنه سترة الفراء إلا تضاحك وسألنى :

— ستيفان . أأنت متزوج ؟

ثم تتلو ذلك حماقات فارغة إظهاراً لعنايته الفائقة بى .

كان كوكوشكين يتملق ضعف أورلوف ، يستملح مجـونه و إفراطه فى اللذة ، ويتكلف لارضائه السخرية اللاذعـة والالحاد ، وينقد فى حضرته أشخاصاً إذا لقيهم فى أماكن أخرى تمسح بأقدامهم فى ذلة . وحين يتحدثون على العشاء عن

الحب والنساء ، يزعم أنه فاجر خليع . ويمكن أن نقول إن مجان بطرسبرج مغرمون بالحديث عن ميولهم الشاذة : يقنع موظف شاب من المجلس البلدى بعناق طاهية ، أو بفتاة بائسة من رائدات طريق نفسكى ، ولكنك إذا أصغيت إليه ظننته موبوءاً بكل شرور الشرق والغرب مجتمعة ، وأنه عضو فخرى فى عدة من الجماعات السرية المجرمة ، وأن الشرطة تراقبه . كان كوكوشكين يتحدث عن نفسه بالأكاذيب ، لا يرعى فى ذلك ضميراً ، وكانوا فى الحقيقة لا يصدقونه ، ولكنهم يمرون دون اكتراث بقصصه التى تأباها العقول .

وكان الزائر الثالث يدعى جروزين ، وهو ابن جنرال محترم مثقف . وكان فى مثل سن أورلوف ، طويل الشعر ، قصير النظر ، يلبس نظارة ذهبية . إنى لأذكر أصابعه الطويلة البيضاء التى تشبه أصابع عازف البيان . كان فى هيئته كلها شبه من الموسيقىّ ، من الفنان . إن عازف الكمان الأول فى الأوركسترا ، ليبدو مثله تماماً . كان يسعل ويشكو الصداع ويبدو مدنفاً رقيقاً . ربما كانوا فى البيت يلبسونه ملابسه ، ويخلعونها عنه كأنه طفل . وكان قد أنهى دراسته فى كلية الحقوق ، واشتغل أول الأمر فى نظارة العدل ، ثم نقل إلى مجلس الشيوخ ، ثم نقل بالوساطة إلى وظيفة فى الخاصة الملكية ، ولكنه مالبث أن تخلى عنها . وكان حين عرفته يعمل فى قسم أورلوف ، رئيساً للكتاب عنده ، ولكنه قال إنه سينتقل إلى نظارة العدل مرة أخرى . لم يكن يبالى بواجباته ، وانتقاله

من وظيفة إلى أخرى . وكان إذا تحدث الناس أمامه بجد عن الدرجات والأوسمة والرواتب ، يبسم بسمة صافية ويردد قولة بروتكوف : « إنك لا تعرف الحقيقة إلا فى خدمة الحكومة . » كانت له زوجة صغيرة مغضنة الوجه ، تغار عليه غيرة شديدة، وخمسة أولاد يلوح عليهم البؤس . لم يكن مخلصاً لزوجته ، ولم يكن يحب أولاده إلا حين يراهم ، وكان على الجملة لا يأبه بأسرته ، بل يهزأ بها . كان يعيش هو وأسرته بالدين ، يقترضون حيثما استطاعوا وفى كل فرصة ، حتى من رؤسائه بالمصلحة ومن البوابين فى البيوت . كانت طبيعته طبيعة رخوة وكان من الكسل بحيث لا يفكر فى مصيره ، يمضى فى طريقه لا يبالى أين يسير أو لم يسير . كان مسلوب الإرادة ، إذا أخذ إلى سباءة ذهب ، وإذا وضع أمامه النبيذ شرب — فاذا لم يوضع أمامه لم يشرب . إذا سبت الزوجات أمامه سب زوجته قائلا إنها حطمت حياته — وحين تمتدح الزوجات ، يمتدح زوجته ويقول مخلصاً : « أنا مغرم بها . مسكينة . » لم يكن لديه سترة فراء ، بل كان دائماً يرتدى ملحفة تفوح منها رائحة المحضن . وحين كان عند العشاء يكور لقمة ، ويشرب قدراً كبيراً من النبيذ الأحمر ، وقد استغرقه الفكر — وهذا عجيب — كنت أحس ، وأكاد أومن ، أن فيه شيئاً ربما أحسه إحساساً غامضاً ، ولكن زحمة حياته اليومية وابتذالها لم تدع له وقتاً ليفهمه ويقدره . كان يجلس أحياناً إلى البيان ، ويعزف نغمة أو نغمتين .

ويأخذ يغنى بلطف :

ما الـذى يضمـرُه لى الصباح المقبل ؟

ولـكنه سرعان ماينهض وكأنه خائف ، ويبتعد عن البيان .

كان الزوار يأتون فى العادة حول العاشرة . وكانوايلعبون الورق فى مكتب أورلوف وأقدم إليهم أنا وبوليا الشاى . لم أعرف المتعة الـكاملة فى حياة الخادم ، إلا فى مثل تلك المناسبات وأؤكد لك أن وقوفى بالباب أربع ساعات أو خمساً ، ألاحظ ألا تفرغ إحدى الـكئوس ، وأبدل منافض اللفائف ، وأجرى إلى المائدة ألتقط قطعة الطباشير أو ورقة من أوراق اللعب حين تسقط ، وأنتظر وأنا واقف منتبه دون أن أجرؤ على الكلام أو السعال ، أو الابتسام — أؤكد لك أن ذلك كله أصعب من أشق الأعمال البدنية . لقد وقفت فى البحر للمراقبة أربع ساعات فى ليالى الشتاء العاصفة ، ولـكن ذلك فى ظنى أهون بـكثير .

كانوا عادة يلعبون الورق إلى الثانية صباحاً ، وأحيـاناً إلى الثـالثة ، ثم يذهبون إلى غرفة الطعـام وهم يتمطون ، يتناولون العشاء ، أو كما كان يقول أورلوف ، ليأكلوا لقمة . كان الحديث يدور على العشاء ويبدأ عامة بأن يتحدث أورلوف بأعين باسمة عن بعض معارفه أو عن كتاب قرأه أخيراً ، أو عن التعيينات الجديدة أو خطط الحـكومة ، فيسـايره

كوكوشكين حريصاً على إرضائه ، وكان مايتلو ذلك ، يبدو لى حينذاك استعراضاً محنقاً . فلم تكن سخرية أورلوف وأصدقائه تخضع لحد ، ولم تكن تبقى على أحد ، أو على شئ . إذا تحدثوا عن الدين سخروا ، و إذا تحدثوا عن الفلسفة وعن معنى الحياة وغايتها سخروا أيضاً ، و إذا بدأ أحدهم فى الحديث عن الفلاحين ، بدأه ساخراً .

هناك صنف من الناس فى بطرسبرج ، اختصوا بالضحك من كل مظهر من مظاهر الحياة ، لا يستطيعون أن يمروا برجل تموت جوعاً ، أو بحادثة انتحار ، دون أن يفوهوا بشئ مبتذل. ولكن أورلوف لم يكن هو وأصدقاؤه يمزحون أو ينكتون ، بل كانوا يسخرون . اعتادوا أن ينكروا وجود الله ، وأن يقولوا إنه لا شئ بعد الموت ، و إن الخالدين ليس لهم وجود إلا فى الأكاديمية الفرنسية . إن الخير الحق لا يوجد ولا يمكن أن يوجد ، لأن وجوده متوقف على الكمال الانسانى ، وهو سخافة منطقية . إن روسيا مثل فارس فى الفقر والبلادة . إن الطبقة المثقفة يائسة ، والأغلبية المطلقة بينها — فى رأى بيكارسكى — قاصرة لا تصلح لشئ . الشعب سكير كسلان، سراق منحل . ليس عندنا علم ، وأدبنا عاثر ، وتجارتنا تقوم على الخديعة : « لا بيع بغير غش . » كان كل شئ على هذا النحو ، وكل شئ يثير الضحك .

قبيل انتهاء العشاء ، كان النبيذ يرقق أمزجتهم ، فيميلون إلى حديث أكثر حيوية . كانوا يضحكون من أسرة جروزين ،

ومن فتوح كوكوشكين ، أو من بكارسكى الذى كان له فى دفتر حسابه ورقتان كتب فى رأس الأولى كلمة « الاحسان » وفى رأس الثانية « الضرورات الفسيولوجية . » كانوا يقولون : لا زوجة مخلصة . وإنه لا توجد الزوجة التى لا يستطيع الرجل الحاذق أن يعابثها قبل أن يترك الثوى ، وزوجها جالس فى مكتبه المجاور ، وإن الفتيات دون العشرين ، فاسدات يعرفن كل شئ . وكان أورلوف يحتفظ بخطاب لتلميذة فى الرابعة عشرة « اصطادت ضابطاً فى شارع نفسكى » وهى عائدة من المدرسة إلى البيت ، فأخذها إلى داره ، فيما يبدو ، ولم يدعها تذهب إلا بعد أن تقدم الليل ، وقد سارعت الفتاة تكتب عن هذا إلى تلميذة من صديقاتها ، تشركها فى فرحها . كانوا يرون أن ليس هناك — وإن لم يكن هناك قط — طهارة خلق ، وأن لا ضرورة لوجودها فيما يبدو ، فقد عاشت الانسانية إلى الآن بدونها . لا ريب أن الضرر الذى يجلبه ما نسميه الرذيلة ، أمر مبالغ فيه . فالرذائل التى يعاقب عليها القانون ، لم تمنع ديوجين من أن يكون فيلسوفاً ومعلما . وقد جمع قيصر وشيشرون بين المجانة والعظمة فى آن واحد . وتزوج كاتو بعد أن علت به السن بفتاة صغيرة ، ولكنه رغم ذلك كان يعتبر من كبار الزهاد ومن دعائم الفضيلة .

كانت الجماعة تتفرق فى الثالثة أو الرابعة صباحاً . أو كانوا يذهبون خارج المدينة ، فى شارع الضباط ، إلى بيت امرأة تدعى فرفارا أو سيبوفنا ، فى حين كنت أجنح إلى غرفتى وأظل فترة طويلة ، يصرفنى السعال والصداع عن النوم .

٤

بعد أن مضى على فى خدمة أورلوف ثلاثة أسابيع ، وكان الوقت صباح الأحد فيما أذكر ، دق شخص جرس الباب . لم تكن الساعة قد بلغت الحادية عشرة ، وكان أورلوف مايزال نائماً . ذهبت أفتح الباب ، وتستطيع أن تتخيل دهشتى حين وجدت سيدة محجبة تقف على العتبة . سألت :

— هل جورجى إيفانتش بالمنزل ؟

عرفت من الصوت ، زينايدا فيدوروفنا التى حملت إليها الرسالات فى شارع زنامنسكى . لست أذكر هل سمح الوقت باجابتها ، أو هل كنت من ضبط النفس بحيث أجيبها ، فقد أخذت عند رؤيتها . والواقع أنها لم تكن فى حاجة إلى جواب ، فقد مرقت بجانبى ، ودخلت وهى تملأ الردهة بشذا عطرها ، الذى لا زلت أذكره إلى اليوم ، ومضت ، حتى خفت وقع أقدامها . لم أسمع شيئاً حتى مر نصف ساعة على الأقل . لكن شخصاً دق الجرس مرة أخرى . وكان فى تلك المرة ، فتاة أنيقة الملبس . تبدو كأنها وصيفة فى أسرة غنية ، وقد صحبها بواب منزلنا . كان كلاهما يلهثان ، وهما يحملان حقيبتين وسلة ملابس . قالت الفتاة :

— هذه لزينايدا فيدوروفنا .

وذهبت دون أن تزيد كلمة . كان ذلك كله شيئاً غامضاً ، وقد جعل بوليا وهى المعجبة بنزوات سادتها ، تبسم لنفسها بسمة

ماكرة ، ويبدو كأنها تود لو تقول : « إذن فهذه هى النهاية . »
وكانت تمشى الوقت كله على أطراف أصابعها . وسمعنا أخيراً
وقع أقدام ، وأتت زينايدا فيدوروفنا إلى الردهة مسرعة ،
وحين رأتنى عند باب غرفتى قالت :

— استيفان ، إذهب إلى جورجى إيفانتش بحاجاته .

حين ذهبت إلى أورلوف بثيابه وحذائه ، كان جالساً
على سريره ، وأقدامه على السجادة المصنوعة من جلد الدب .
كان يبدو عليه الحرج . لم يلحظنى ، ولم يكن يهمه رأى خادمه
ولكنه كان ظاهر القلق والارتباك أمام نفسه ، أمام ضميره.
ارتدى ملابسه واغتسل ، واستعمل أمشاطه وفراجينه فى
صمت وعناية ، كأنما يفسح لنفسه وقتاً يتدبر فيه وضعه ويتأمله
وكان المرء يستطيع ، حتى من خلفه ، أن يرى اضطرابه وسخطه
على نفسه .

شربا القهوة معاً . صبت زينايدا فيدوروفنا القهوة لنفسها
ولأورلوف ، ثم اعتمدت بمرفقيها على المائدة وضحكت . قالت:

— ما زلت أكذب عينى . إن المرء حين يطول أمد
رحلاته ثم ينتهى أخيراً إلى فندق ، يصعب عليه أن يصدق
أنه غير مضطر إلى استئناف الرحلة . جميل أن نتنفس
فى حرية .

وتنفست الصعداء ، وضحكت مثل طفل يبالغ فى عبثه .

قال أورلوف وهو يومئ برأسه نحو القهوة :

— إسمحى لى . إن القراءة أثناء الإفطار عادة لا أستطيع

التخلى عنها . ولكنى أستطيع أن أعمل شيئين فى آن — أقرأ وأسمع .

— إقرأ كما يحلو لك . . . ابق على عاداتك وحريتك . ولكن لم يبدو عليك هذا الوجوم ؟ أأنت كذلك كل صباح أم فى هذا الصباح وحده ؟ ألست مسروراً ؟

— أجل إنى مسرور . ولكن يجب أن أقر بأنى مأخوذ قليلا .

— لم ؟ كان أمامك وقت طويل تعد فيه نفسك لنزولى عليك . لقد كنت أهدد بالمجئ كل يوم .

— أجل . ولكنى لم أتوقع أن تنفذى تهديدك اليوم .

— أنا نفسى لم أتوقعه . ولكن هذا أفضل . إنه أفضل يا عزيزى . الخير فى خلع السن المألومة والخلاص منها .

— أجل . بالطبع .

قالت وهى تغمض عينيها :

— أوه يا عزيزى . العبرة بالخواتيم . ولكن كم مر بى من عذاب قبل هذه الخاتمة السعيدة ! إن ضحكى لا يعنى شيئاً أنا فرحة ، أنا سعيدة . ولكنى أميل إلى البكاء منى إلى الضحك .

ومضت تقول بالفرنسية :

— كان على أسس أن أخوض معركة منظمة ، يعلم الله كم كنت شقية . ولكنى أضحك لأنى لا أستطيع أن أصدق . أنا مازلت إخال جلوسى معك هنا نشرب لقهوة ، حلما لا حقيقة .

ثم وصفت ، وهى ماتزال تتكلم بالفرنسية ، كيف وقعت بينها وبين زوجهـا القطيعة فى اليوم السابق ، وكانت عيناها تمتلئـان بالدموع مرة وبالضحك مرة وهى ترنو إلى أورلوف فى نشوة . حدثته بأن زوجها كان يرتاب فيها من عهد بعيد ، ولـكنه كان يتجنب كل جدال فى هذا الشأن ، وقـد وقعت بينهما منـازعات كثيرة . وكان فى العادة يركن إلى الصمت فى أشد اللحظات حرارة ، وينطلق إلى مكتبه خشية أن يدفعه الحنق إلى الافصـاح عن شكوكه ، أو أن تبدأ هى فتصرح . وكانت هى تحس فى نفسها الاثم ، والتفـاهة ، والعجز عن أن تقـدم على خطـوة جريئة جـدية ، وقـد زاد ذلك من كراهيتها لنفسها ولزوجها على الأيام ، وعانت عذاب الجحيم . ولـكنه حين صـاح فى اليوم السابق بصوت باك — وكانا — يتشاجران — « يا إلهى متى ينتهى هذا ؟ » وذهب إلى مكتبه ، جرت خلفه كما تركض القطة وراء الفأر ، وصاحت وهى تمنعه من أن يغلق الباب ، قائلة إنها تـكرهه من كل نفسها . ثم تركها تدخل غرفة المـكتب فأخبرته بـكل شئ ، واعترفت بأنها تحب رجـلا آخر ، وأن ذلك الآخر كان زوجهـا الحقيقى الشرعى ، وأنها ترى أن واجبها الحق هـو أن تذهب إليه ذلك اليوم مهما يحدث ، ولو ضربت بالرصاص .

قاطعها أورلوف وعيناه ماتزالان على الصحيفة ، قائلا :

— إن فيك شيئاً من الرومانتيكية .

ضحكت ، ومضت فى حديثها دون أن تمس قهوتها . توهج

خداها ، فشعرت لذلك بشئ من الارتباك ، ونظرت إلى و إلى بوليا فى اضطراب . وقد علمت مما قالته بعد ذلك أن زوجها أجابها بالتهديد والتوبيخ ثم بالبكاء ، وأن حقيقة الأمر أنها هى لا زوجها كانت البادئة بالهجوم .

قالت لأورلوف :

— أجل يا عزيزى ، كان كل شئ يسير فى طريقه مادمت منفعلة ، ولكن حين هبط الليل ، خانتنى قواى . أنت لا تؤمن بالله يا جورج ، ولكنى أومن به قليلا ، وأخشى الحساب . إن الله يوصينا بالصبر وكرم النفس والايثار ، ولكن هأناذى آبى أن أكون صابرة ، وأريد أن أبدل حياتى وفق هواى . أصواب هذا ؟ ماذا لو كان خطأً فى نظر الرب ؟ جاءنى زوجى فى الساعة الثانية صباحاً وقال : « إياك أن تذهبى ، فسأعيدك بالشرطة ، وأحدث فضيحة . » ثم رأيته بعد قليل واقفاً ببابى كالشبح : « إرحمينى ! إن هربك قد يضرنى فى عملى . » تأثرت بفظاظة تلك الكلمات ، وشعرت بالجمود فى جسمى كله . شعرت أن الحساب قد بدأ ، وأخذت أبكى وأرتعد من الخوف . شعرت كأن السقف قد سقط فوقى ، وأنى أقاد إلى المخفر — وأنك ستبدى لى الفتور — شعرت فى الحق بأشياء كثيرة ، فكرت فى أن أدخل ديراً ، أو أصبح ممرضة ، ولا أفكر فى السعادة أبداً . ثم ذكرت أنك تحبنى ، وأنى لا أملك الحق فى التخلص من نفسى دون أن أتعلم ، وتعقد كل شئ فى ذهنى — كنت يائسة لا أدرى ما أعمل أو أفكر . ولكن الشمس أشرقت فانبعثت فىّ

السعادة . ولما انجلى الصباح أسرعت إليك . آه ، كم لقيت يا عزيزى ! أنا لم أنم منذ ليلتين !

كانت متعبة منفعلة ، يرين عليها النوم ، وتريد فى الوقت عينه أن تتكلم فلا تنتهى ؛ أن تضحك وتبكى ، وأن تذهب إلى مطعم تتناول الغداء ، حتى تحس بحريتها . قالت وهى تهرول بين الغرف حين انتهيا من الافطار :

– إن مسكنك مريح ، ولكن أخشى ألا يسعنا كلينا . أية غرفة ستجعلها لى ؟ أنا أحب هذه ، لأنها تجاور مكتبك .

فى الساعة الأولى بدلت ملابسها فى الغرفة المجاورة للمكتب والتى أسمتها منذ ذلك الحين غرفتها ، وذهبت مع أورلوف للغداء وقد تعشيا كذلك فى مطعم ، وقضيا الفترة الطويلة بين الغداء والعشاء فى شراء بعض الحاجات . وبقيت حتى وقت متأخر من المساء أستقبل السعاة وصبيان الحوانيت . وقد اشتريا بين ما اشترياه : مرآة طويلة ، ومائدة زينة وسريراً وأدوات شاى فخمة لم نكن فى حاجة إليها . واشتريا مجموعة كاملة من القدور النحاسية صففناها على رف فى مطبخنا البارد الخالى . لمعت عينا بوليا حين فككنا رباط أدوات الشاى ، ونظرت إلى مرتين أو ثلاثاً نظرة حقد وخوف أن أسبقها إلى سرقة واحد من تلك الأكواب البديعة . وأتتنا أيضاً منضدة كتابة نسائية ثمينة ضخمة . كان واضحاً أن زينايدا فيودورفنا تنوى أن تقيم معنا إلى الأبد ، وأن تجعل المسكن بيتها .

وعادت مع أورلوف بين الساعة التاسعة والعاشرة . وكانت

زينايدا فيدوروفنا نشوى بحياتها الجديدة ، إذ كان يفعمها الشعور بأنها أتت أمراً خارقاً للعادة ، وكانت محبة وامقة ، تحسب أنها موموقة ، وكانت مجهدة تتشوف إلى نوم عميق لذيذ عصرت يديها وهي تفيض سروراً ، واستحسنت كل شئ ، وأقسمت أنها ستحب أورلوف أبداً . وجعلها هذا القسم ، وثقتها الغريرة — بل الصبيانية — بأنها محبوبة كذلك حباً عميقاً ، وأنها ستظل محبوبة أبداً — جعلها ذلك كله أصغر مما هي بخمس سنين على الأقل . وكانت تلغو لغواً ظريفاً وتضحك من نفسها .

قالت وهي تتكلف أن تقول شيئاً جدياً مفيداً :

— لا نعمة أعظم من الحرية ! فكر في الأمر تعجب لسخافته : إننا لا نقيم وزناً لآرائنا نحن ولو كانت آراء سديدة ، ولكننا نرتعد لآراء شتى الأغبياء من الناس . لقد ظللت إلى آخر لحظة خائفة مما قد يقوله الناس ، ولكنني ما إن جريت مع فطرتي وعقدت العزم على أن أسلك السبيل الذي أرضاه ، حتى تفتحت عيناي ، وتغلبت على مخاوفي ، وإني الآن سعيدة ، وإني لأتمنى لكل أحد مثل هذه السعادة !

ولكن أفكارها سرعان ما انطلقت في وجهة أخرى ، وأخذت تتحدث عن مسكن جديد ، وأوارق للجدران ، وجياد ورحلة إلى سويسرا وإيطاليا . وكان أورلوف قد مل المطاعم والحوانيت وما زال يعروه ذلك القلق الذي لاحظته عليه في الصباح ، فكان يبتسم ، ولعل الأرجح أنه كان يبتسم تأدباً لا سروراً .

فكانت إذا تكلمت جادة عن شئ ، وافقها ساخراً يقول :

— إى نعم .

قالت لى :

— عليك بالبحث عن طاهية ماهرة .

فقال أورلوف وهو ينظر إلى ببرود :

— لا داعى للعجلة فى أمر المطبخ ، فعلينا أولا أن ننتقل إلى مسكن جديد .

ولم نكن نطهو فى المنزل قط ولا نقتنى جياداً ، فقد كان يقول : « إنه يجب ألا يعيش فى فوضى » ، ولم يكن يحتمل بقائى أنا وبوليا فى المسكن إلا إضطراراً . كان ذوقه ينبو عن « الوكر المنزلى » كما يسمونه ، وكان يجد فى متعه اليومية وهمومه الصغيرة غثاثة وسوقية . بشع أن تكون من الطبقة الوسطى ، وبشع أيضاً أن يكون لك صبى ، أو صبيان تتحدث عنهم . وبدأت أتشوق إلى رؤية هذين المخلوقين ، كيف يتعاشران فى مسكن واحد ، وهى الألوف عاشقة البيت ، ذات الأوانى النحاسية التى تحلم بطاهية ماهرة وجياد ؛ وهو الذى يستهويه أن يقول لأصدقائه إن مسكن الرجل المعتدل المنظم ينبغى أن يكون كالبارجة ، لا يحتوى على شئ زائد عن الحاجة : لا نساء ، ولا أطفال ، ولا سجاجيد ؛ ولا أوانى للطبخ .

٥

إذن فلأحدثك بما كان فى الخميس التالى . فى ذلك اليوم تعشت زينايدا فيودورفنا فى مطعم كونتننت أو دونون . وعاد أورلوف وحيداً ، وذهبت زينايدا فيودوروفنا كما علمت فيما بعد إلى عدوة بطرسبرج ، تقضى مع مربيتها العجوز الوقت الذى يمكثه الزوار عندنا . لم يعن أورلوف بأن يقدمها إلى أصدقائه . أدركت ذلك عند الافطار حين بدأ يؤكد لها ضرورة العدول عن سهرات الخميس حرصاً على راحتها .

وصل الزوار كعادتهم فى وقت واحد تقريباً . سألنى كوكوشكين هامساً :

— هل سيدتك فى المنزل أيضاً ؟

أجبت :

— لا يا سيدى .

فدخل وهو ينظر بعينه نظرة زائغة ماكرة ، ويضحك ملغزاً ويفرك يديه اللتين أثلجهما الصقيع . قال لأورلوف ، وجسمه كله يهتز بضحك متملق دنئ :

— لى الشرف أن أهنئك . أرجو أن تكون لكما ذرية كثيرة كأرز لبنان .

دخل الزوار إلى حجرة النوم ، وطربوا طرباً شديداً لكوتى امرأة ، وللسجادة التى وضعت بين السريرين ، ولسترة رمادية كانت معلقة على أرجل السرير . شاقهم أن يقع فى فخاخ النساء

بمثل تلك الطريقة السهلة العادية ، ذلك الرجل العنيد الذى كان يحتقر صغائر الحب المبتذلة .

كان كوكوشكين يردد :

— إن ذلك الذى رفع أصبع الاحتقار ، أخذ يركع الآن فى خضوع .

ويمكن أن أقول عابراً إن كوكوشكين اعتاد عادة سيئة هى ترصيع كلامه بشواهد من نصوص الكنيسة الصقلبية . قال وقد ذهبوا من غرفة النوم إلى الغرفة المجاورة للمكتب :

— هنا تحلم جرتشين بحبيبها فاوست .

ومضى يضحك ضحكا صاخباً كأنه قال شيئاً رائعاً . لحظت جروزين . خلت نفسه الصافية لا تطيق هذا الضحك ، ولكنى كنت مخطئاً ، فقد كان السرور يشع من وجهه النحيل الساذج. وحين جلسوا يلعبون الورق قال وهو يلثغ ، ويكاد يختنق من شدة الضحك ، إن كل ما يحتاجه « جورجى العزيز » ليتم سعادته المنزلية هو غليون من خشب التفاح وقيثارة . وكان بكارسكى يضحك فى رزانة وإن رأى المرء من تعبيره الجاد أن حب أورلوف الجديد لم يكن يروقه ، ولم يكن يعلم بالدقة ماحدث . سأل مرتبكا بعد أن لعبوا ثلاث دورات :

— لكن ماذا صنع الزوج ؟

أجاب أورلوف :

— لا أدرى .

خلل بكارسكى لحيته الكبيرة بأصابعه ، وغرق فى التفكير

ولم يعاود الكلام حتى حان موعد العشاء . قال حين جلسوا للعشاء وهو يزن كلماته و يمط كل كلمة :

— أرجو أن تغفرا لى قولى إنى لا أفهمكما . أنا أفهم أن تتحابا ، وتخرجا على الوصية السابعة كما تشاءان . أجل هذا مفهوم . ولكن لم تطلعان الزوج على أسراركما ؟ أكانت هناك حاجة ما إلى ذلك ؟

— ولكن هل يغير هذا من الأمر شيئاً ؟

غمغم بكارسكى :

— هم . إذن دعنى أقل لك هذا يا صديقى .

ومضى يقول وقد ظهر عليه أنه يجهد فكره :

— لو أنى تزوجت مرة أخرى ، وبدا لك أن تغرى امرأتى ، فأرجو أن تفعل ذلك دون أن ألحظه . إن خداع الرجل أشرف بكثير من أن تحطم حياة أسرته وتسىء إلى سمعته . أنا أفهم أنكما تتخيلان فى إقامتكما معاً إقامة سافرة ، شيئاً شريفاً فذاً ، ولكنى لا أقركما على هذه الفكرة . . . ماذا أسميها ؟ . . . على هذه الفكرة الرومانتيكية ؟

لم يجب أورلوف . كان ضيق الصدر عازفاً عن الكلام . دق بكارسكى على المائدة بأصابعه وهو ما يزال فى حيرته وفكر قليلا ثم قال :

— أنا لا أفهمكما على أية حال . فأنت لست طالباً ، وليست هى خياطة . فكلاكما ميسور الحال . أظن أنك كنت تستطيع إعداد مسكن مستقل لها .

— لا . لم أكن أستطيع . اقرأ ترجنيف .

— لم أقرؤه ؟ لقد فرغت من قراءته .

قال أورلوف وقد خزر عينيه ساخراً :

— إن ترجنيف يعلمنا فى قصصه أن كل فتاة سامية شريفة ينبغى أن تتبع الرجل الذى تحبه إلى أقاصى الأرض ، وأن تخدم فكرته . إن أقاصى الأرض تجوّز شعرى ، ويمكن أن تحد الأرض وأقاصيها بمسكن الرجل الذى تحب . . . وكذلك يكون رفضك الاقامة فى مسكن واحد مع المرأة التى تحبها ، حرماناً لها من رسالتها السامية ، وانصرافا عن مشاركتها فى مثلها . أجل يا صديقى العزيز ؛ هذا ما كتبه ترجنيف ، وعلى أن أشتى به .

قال جروزين بلطف وهو يهز كتفيه :

— أنا لا أفهم دخل ترجنيف فى هذا . أتذكر ، يا جورج ، كيف كان فى « المقابلات الثلاث » يمشى فى المساء بمكان ما من إيطاليا . ويسمع بغتة : « تعالَ وأنت تفكر فى سراً » .

وتمتم جروزين :

— بديع .

قال بكارسكى :

— ولكنها لم تفرض عليك الاقامة معك . لقد كان ذلك ما تريده .

— وماذا بعد ؟ أنا لم أرد ذلك ، بل لم يخطر ببالى أنه قد يحدث يوماً . لقد كنت أحسبها تهزل حين كانت تقول إنها ستأتى لتعيش معى .

ضحك الجميع .

قال أورلوف فى لهجة الرجل الذى يضطر إلى تبر ير عمله :

— ما كنت لأرغب فى مثل هذا . أنا لست بطلا من أبطال ترجنيف ، ولو أنى أردت أن أحرر بلغاريا لما احتجت إلى صحبة امرأة . أنا أنظر إلى الحب على أنه ، قبل كل شئ ، ضرورة جسمية تنحط بروحى وتعاديه ، فأما أن تشبع بحكمة أو تهمل إهمالا تاماً ، و إلا أدخلت فى حياة المرء عناصر قذرة مثلها . أنا أحاول أن أجعلها جميلة ، وأحيطها بحشد من الأوهام حتى تكون لذة لا عذاباً . أنا لا أذهب لأرى امرأة إلا إذا علمت سلفاً أنها جميلة ساحرة ، وأنا لا أذهب إلا عن رغبة . و بهذه الطريقة وحدها ننجح فى خداع بعضنا بعضاً ؛ ونخال أننا نحب وأننا سعداء . ولكن هل يمكن أن أهوى القدور النحاسية أو الشعر الأشعث ، أو أرغب فى أن أرى ضيق الصدر أو غير مغتسل ؟ إن زينايدا فيودوروفنا تريد لسذاجة قلبها ، أن أحب ما كنت أتجنبه طول حياتى ، إنها تريد أن يكون لمسكنى ريح الطهى والمسح . تريد ضجة الانتقال إلى مسكن آخر ، والركوب فى عربة خاصة . تريد أن تعد قطع ملابسى وأن تعنى بصحتى . تريد أن تتدخل فى حياتى الخاصة كل لحظة وأن تراقب كل خطوة لى . وهى فى الوقت عينه تؤكد لى مخلصة أن عاداتى وحريتى ستظل كما هى . وهى معتقدة أننا سنرحل لنقضى شهر العسل ، مثل زوجين شابين — أى أنها تريد أن تكون معى طول الوقت فى القطارات والفنادق

فى حين أحب أنا القراءة أثناء الرحلة ، ولا أحتمل الحديث فى القطارات .

قال بكارسكى :

— ينبغى أن تجعل لها نصيباً من حديثك أيضاً .

— ماذا ؟ أتظنها تفهمنى؟ إن تفكيرنا مختلف جداً . إنها ترى أن تركها لأبيها أو أمها أو زوجها من أجل الرجل الذى تحبه هو غاية الفضيلة المـدنية ، بينما أنظر أنا إلى ذلك على أنه عبث أطفال . إن الوقوع فى أسر الحب والهرب مع رجل هو عندها بدء حياة جديدة ، بينما هو لا يعنى شيئاً عندى . إن الحب والرجل هما أهم ما يعنيها فى حياتها . ولعل ذلك صادر عن فلسفة عقلها الباطن . حاول أن تقنعها بأن الحب ليس إلا حاجة جسمية أولية كالحاجة إلى الغذاء أو الملبس . أن نهاية العالم لا تقع إذا كانت حالة الأزواج والزوجات لا ترضى . أن الرجل قد يكون ماجناً خليعاً وهو مع ذلك رجل شريف عبقرى . وأن المرء من جهة أخرى قد يعف عن لذات الحب ويكون فى الوقت نفسه حيواناً بليداً شريراً ! أن الرجل المدنى اليوم حتى بين الطبقات الدنيا — كالعمال الفرنسيين مثلا — ينفق عشرة مليمات على غدائه ، وخمسة على نبيذه ، وخمسة أو عشرة على المرأة ، ثم يكرس ذهنه وأعصابه لعمله . لكن زينايدا فيودوروفنا لا تجعل للحب هذا القدر من المليمات بل تهبه نفسها كلها . لوحدثتها ، لأجابتنى صائحة معلنة بكل ما تستطيع من حرارة ، أنى حطمتها ، ولم يبق لها شئ تعيش من أجله .

قال بكارسكى :

— لا تحدثها بشئ . وليس عليك إلا أن تستأجر لها مسكناً منعزلا .

— هذا شئ يسهل قوله . . .

وران الصمت لحظة . قال كوكوشكين :

— ولكنها فاتنة . رائعة . إن مثيلاتها من النساء يحسبن أن سيحببن إلى الأبد ، ويسلمن أنفسهن مولهات .

قال أورلوف :

— ولكن المرء ينبغى أن يكون له رأس بين كتفيه . يجب على المرء أن يتعقل . إن التجربة التى يكسبها المرء من الحياة اليومية ، ويستخلصها من القصص والمسرحيات تؤيد كلها أن العشق والمعاشرة بين قوم مهذبين لا تستمر بحال سوى عامين أو ثلاثة أعوام على الأكثر ، مهما يكن الحب عظيما فى البداية . ذلك ما يجب أن تعلمه . وكذلك ففكرة الانتقال ، والقدور النحاسية ، والأمل فى حب ووفاق أبديين ، ليست إلا رغبة تضلل بها نفسها وتضللنى . هى جميلة فاتنة . من ينكر ذلك ؟ ولكنها قلبت حياتى رأساً على عقب ، وفرضت على أن أعد من المشكلات ما كنت أعتبره حتى الآن هراء تافهاً . أنا أخدم صنما ما نظرت إليه قط على أنه إله . هى رائعة ، فاتنة ، ولكنى ، لأمر ما ، أحس وأنا عائد إلى منزلى بالضيق ، كأنى أتوقع أن ألقى فى المنزل شيئاً مكدراً ، كأن أجد العمال يكسرون المدفأة ويسدون المكان بأكوام من

الآجر . الواقع أنى لم أعد أمنح الحب مليا بل قطعة من هدوء ذهنى وأعصابى . هذا أمر سيء . . .

همس كوكوشكين لنفسه : «وهى لا تسمع هذا الوغد!»

وقال بحركة مسرحية :

— سيدى العزيز ! سأعفيك من واجبك الثقيل فى حب ذلك المخلوق المعبود ! سأنتزع زينايدا فيودوروفنا منك !

قال أورلوف غير آبه :

— تستطيع ذلك . . .

ظل كوكوشكين نصف دقيقة يضحك ضحكة حادة صغيرة ويختلج جسمه كله ثم قال :

— احترس . أنا جاد . لا تمثل من بعد دور عطيل !

بدأ الجميع يتحدثون بنشاط كوكوشكين الذى لا يفتر فى أمور الحب : كيف تعجز النساء عن مقاومته ، وأى خطر هو على الأزواج ، وكيف أن الشيطان سيشويه فى العالم الآخر بعهره فى هذا العالم . خزر كوكوشكين عينيه وبقى صامتاً ، وحين كانت تذكر أسماء من يعرفون من السيدات ، كان يرفع خنصره كأنما يقول إنه لا ينبغى أن يفضحوا أسرار غيرهم .

نظر أورلوف بغتة إلى ساعته .

أدرك أصدقاؤه ما يعنى وبدأوا ينصرفون . وأذكر أن جروزين — وكان نشوان — تلكأ فى الانصراف تلكؤاً مملا . ارتدى سترته التى كانت تشبه فى تفصيلها سترة الأطفال فى الأسر الفقيرة ، ورفع الياقة ، وبدأ يقص قصة شديدة

الالتواء ، ثم حين رأى أن لا أحد يصغى إليه ، ألقى على إحدى كتفيه الملحفة التى كانت تفوح منها رائحة المحضن ، وسألنى بوجه متوسل متأثم أن أجد له قبعته .

قال برقة :

— يا ملاكى جورج . افعل كما أسألك يا ولدى العزيز . تعال معنا خارج المدينة !

— تستطيعون أن تذهبوا ولكن لا أستطيع . أنا الآن كالمتزوج .

— إنها فتاة لطيفة ، فلن تغضب . تعال يا رئيسى العزيز ! الجو رائع . هناك الجليد والصقيع . . . أنت ، بشرفى ، محتاج إلى الاسترواح . أنت منحرف المزاج . ولا أدرى ما بك . . .

تمطى أورلوف وتثاءب ونظر إلى بكارسكى وقال متردداً :

— أذاهب أنت ؟

— لا أدرى . ربما .

قال أورلوف بعد شئ من التردد :

— أأسكر ؟ حسناً . أنا آت . انتظروا لحظة ، سآتى بنقود .

ودخل حجرة المكتب ، ودلف جروزين إليها أيضاً ، وهو يجر وراءه ملحفته . وبعد لحظة رجعا إلى الردهة ، وكان جروزين يقبض فى يده ورقة من ذوات عشرة الروبلات ، وهو سكران شديد المرح . قال :

— سنتفق غداً . . . إنها حنون . . . لن تعترض . . .

هى عرابة ليزوتشكا . أنا أحبها ، المسكينة ، آه ، ياصديقى العزيز !

وضحك فى مرح شديد . وقال وهو يدفع جبينه فى ظهر بكارسكى :

— آه ، بكارسكى يا روحى العزيز ! يالله ! جاف كالبسكوتة ولكنى أقسم أنه شغوف بالنساء . . .

قال أورلوف وهو يرتدى سترة الفراء :

— السمينات سنهن . لنسرع و إلا لقيتنا عند عتبة الباب .

غمغم جروزين :

— تعال وأنت تفكر فى سراً .

وأخيراً ذهبوا . ولم ينم أرولوف فى المنزل بل عاد فى اليوم التالى عند الغداء .

٦

فقدت زينايدا فيودوروفنا ساعتها الذهبية ، وهى هدية من أبيها . عجبت لضياع الساعة وانزعجت . وقضت نصف نهار تجوس خلال الغرف ، تنظر يائسة على الموائد جميعها ، والنوافذ كلها ، ولكن الساعة اختفت اختفاء تاماً .

ثم لم يمض سوى ثلاثة أيام وتركت زينايدا فيودوروفنا كيس نقودها فى الردهة عند دخولها . وكان من حسن حظى أن بوليا — لا أنا — هى التى عاونتها على خلع معطفها . فلما

افتقد الـكيس لم يوجد فى الردهة . قالت زينايدا فيودوروفنا فى حيرة :

— غريب . أنا أذكر بوضوح أنى أخرجته من جيبى لأنقذ سائق العربة أجره . . . ثم وضعته هنا إلى جانب المرآة . هذا غريب جداً !

لم أسرق الـكيس ، ولـكنى شعرت كأنى سرقته وقبض على وأنا أسرقه . فجالت الدموع فى عينى . وحين جلسا للعشاء قالت زينايدا فيودورفنا لأورلوف بالفرنسية :

— يبدو أن البيت مسكون بالأرواح . لقد فقدت كيس نقودى فى الردهة اليوم . ولـكن الأمر ليس مجرد حيلة بريئة من الأرواح . فقد أخذت منه قطعة ذهبية وعشرين روبلا ورقاً .

قال أورلوف :

— أنت دائمة الفقد للأشياء . ساعتك ، ثم نقودك . لم لا يحدث لى شئ من ذلك ؟

بعد لحظة كانت زينايدا فيودورفنا قد نسيت حيلة الأشباح ، وأخذت تروى ضاحكة كيف طلبت فى الأسبوع السابق بعض ورق الـكتابة ونسيت أن تعطى عنوانها الجديد ، فأرسل الدكان الورق إلى بيتها القديم عند زوجها ، فـكان عليه أن يدفع اثنى عشر روبلا ثمناً للورق . وبغتة التفتت إلى بوليا وثبتت فيها نظرها ؛ احمرت وهى تفعل ذلك وارتبكت فبدأت تتحدث عن شئ آخر .

وحين أخذت القهوة إلى المكتب ، كان أورلوف واقفاً وظهره إلى النار وكانت هي جالسة تجاهه فى كرسي كبير . كانت تقول بالفرنسية :

— أنا لست منحرفة المزاج ألبتة ، ولكنى كنت أجمع بين الأشياء ، وأنا أراها الآن بوضوح . أنا أستطيع أن أخبرك فى أى يوم وفى أية ساعة سرقت ساعتى . وكيس النقود لا يمكن أن يتطرق الشك إلى ذلك .

وضحكت وهى تأخذ القهوة منى وقالت :

— أوه . الآن أستطيع أن أفهم لم أفقد أبداً مناديلى وقفازاتى . مهما تقل فسأطرد هذه الحدأة غداً ، وأرسل ستيفان فى طلب خادمى صوفيا . إنها لا تسرق وليس لها مثل هذا ... المظهر المنفر .

— أنت منحرفة المزاج ، وسيتغير الأمر غداً وتدركين أنه لا يصح أن تطردى الناس لا لشئ إلا لأنك تشكين فيهم .

قالت زينايدا فيودورفنا :

— ليس الأمر شكا بل يقيناً . أنا لم أقل شيئاً حين كنت أشك فى خادمك البائس الضاوى . لا يجمل بك ألا تصدقنى يا جورج .

قال أورلوف وقد استدار ورمى عقب لفافته فى النار :

— إذا كانت فكرتك عن شئ تخالف فكرتى ؛ فليس معنى ذلك أنى لا أصدقك . قد تكونين على حق ، ولكن لا داعى للانزعاج على أية حال . الحق أنى لم أتوقع قط أن

يسبب لك مسكنى المتواضع ذلك العناء والاضطراب . لقد فقدت قطعة ذهبية — لا بأس . خذى منى مائة قطعة ، ولكن الأمر المرهق المتعب الذى لا يروقنى هو تغيير عاداتى ، واختيار خادم جديدة ، والانتظار حتى تألف المكان . لا شك أن خادمنا بدينة ، ولعل بها ضعفا إزاء القفازات والمناديل ، ولكنها حسنة المسلك ، مدربة ، لا تصرخ إذا قرصها كوكوشكين .

— تعنى أنك لا تستطيع فراقها ؟ . . . لم لا تقول ذلك ؟

— أأنت غيرى ؟

قالت زينايدا فيودورفنا فى إصرار :

— أجل .

— أشكرك .

أعادت وقد لمعت الدموع فى عينيها :

— أجل . أنا غيرى . بل الأمر شر من ذلك . لا أجد كلمة تدل عليه .

وضغطت بيديها على صدغيها ومضت تقول مندفعة :

— أنتم أيها الرجال تثيرون الاشمئزاز ! هذا فظيع .

— لا أرى فى الأمر فظاعة .

— أنا لم أر شيئاً . أنا لا أدرى . ولكنهم يقولون إنكم — أيها الرجال — تبدءون بالخادمات وأنتم غلمان ، وتألفون ذلك فلا تشمئزون منه . لا أدرى . لا أدرى . ولكنى قرأت فعلا . . .

ثم قالت وقد ذهبت إلى أورلوف وانتقلت إلى نبرة مدللة متوسلة :

— جورج . لا شك أنك على حق . أنا منحرفة المزاج اليوم . ولكن يجب أن تفهم أن الأمر ليس بيدى . إنها تثير اشمئزازى وأنا أخشاها . يشقينى أن أراها .

قال أورلوف وهو يهز كتفيه حائراً ويبتعد عن النار :

— لا شك أنك تستطيعين السمو على مثل هذه التفاهات . الأمر يسير جداً : أسقطيها من نظرك ، فلا تعود تغيظك ولا تحتاجين أن تخلقى من الأمر التافه مأساة .

خرجت من حجرة المكتب . ولست أدرى أى جواب تلقاه أورلوف . ومهما يكن ذلك الجواب فقد بقيت بوليا ، ولم تعد زينايدا فيودورفنا بعد ذلك تطلب منها شيئاً ، وكان واضحاً أنها تحاول أن تستغنى عن خدماتها . كانت زينايدا ترتعد إذا ناولتها بوليا شيئاً ، بل إذا مرت بها بوسوسة عقدها وحفيف أذيالها .

أعتقد أن أورلوف ما كان ليتردد فى طرد بوليا ، أو ليسأل إيضاحاً ، لو أن جروزين أو بكارسكى طلب إليه ذلك . كان سهل الاقتناع كغيره من الناس الذين لا يأبهون لشئ . ولكنه فى علاقاته مع زينايدا فيودورفنا ، بل فى التافه منها ، كان يبدى عناداً خالياً من الحكمة أحياناً . كنت أعلم سلفاً أن زينايدا فيودورفنا لو رغبت فى شئ لانصرف عنه أورلوف . حين كانت تعود بعد التسوق فتسرع لترى أورلوف بفخر

شيئاً جديداً اشترته ، كان ينظر إليه ويقول ببرود إن كثرة النوافل فى المنزل تفسد جوه . وكان يحدث أحياناً أن يرتدى ثيابه للخروج إلى مكان ما ، ويودع زينايدا فيودورفنا ، ثم يعدل عن رأيه بغتة ، ويبقى فى المنزل للعناد وحده . كنت أظن أنه ما كان يبقى فى المنزل حينئذ إلا ليحس بأنه قد أسئ إليه . كانت زينايدا فيودورفنا تقول وهى تظهر الضجر وإن كانت فى الوقت نفسه تتألق بشراً :

— لم تبقى؟ لم؟ أنت لم تعتد أن تقضى أمسياتك فى البيت : وأنا لا أريدك أن تغير عاداتك من أجلى . اخرج كما اعتدت إذا شئت ألا تشعرنى بأنى أذنبت فى حقك .

فيقول أورلوف :

— لا أحد يلومك .

ثم يتمطى على كرسيه الوثير فى المكتب وكأنه ضحية ، ويأخذ كتاباً وقد ظلل عينيه بيده . ولكن الكتاب لا يلبث أن يسقط من يده ، ويتقلب فى الكرسى متثاقلا ، ويعود فيظلل عينيه بيده كأنه يتقى الشمس . إنه الآن يحس الضيق لأنه لم يخرج .

تقول زينايدا فيودورفنا وقد جاءت فى تردد إلى المكتب :

— أأستطيع أن أدخل ؟ هل تقرأ ؟ لقد شعرت بالضيق وحدى ، وجئت ريثما . . . أنظر إليك نظرة . . .

أذكر أنها فى إحدى الأماسى دخلت كذلك فى تردد ولغير مناسبة وسقطت على السجادة عند قدمى أورلوف ، وكان المرء

يستطيع أن يرى من حركاتها الرقيقة الخجلة أنها لم تكن تفهم حالته وأنها كانت خائفة . قالت متلطفة واضحة الرغبة فى تملقه :

— أنت دائماً تقرأ ، أنعلم يا جورج أحد أسرار نجاحك ؟ إنه ذكاؤك وسعة اطلاعك . أى كتاب معك !

أجابها أورلوف ، وتبع ذلك صمت بقى دقائق خلتها طويلة جداً . كنت واقفاً فى الثوى حيث أستطيع أن أرقبهما ، وكنت أخشى أن أسعل . قالت زينايدا فيودورفنا :

— هناك أمر أردت أن أخبرك به — وضحكت — هل أخبرك؟ أغلب الظن أنك ستضحك وتقول إنى أتملق نفسى.أنت تعلم أنى أريد ، أريد بلهفة أن أعتقد أنك باق الليلة فى البيت لأجلى . . . حتى نقضى المساء معاً . نعم ؟ أيمكن أن أظن ذلك ؟

قال وهو يظلل عينيه :

— افعلى . إن الانسان السعيد حقاً هو ذلك الذى لا يفكر فيما هو كائن وحسب بل فيما لا يكون أيضاً .

— تلك عبارة طويلة لا أحسن فهمها . أنت تقصد أن السعداء من الناس يعيشون فى الخيال . أجل هذا حق . أنا أحب أن أجلس فى مكتبك فى المساء وأدع أفكارى تحملنى بعيداً . . . بعيداً . . . لذيذ أن يحلم المرء أحياناً . فلنتحدث بأحلامنا يا جورج .

— أنا لم أكن قط فى مدرسة داخلية للبنات ، فلم أتعلم هذا الفن .

قالت زينايدا فيودورفنا آخذة بيد أورلوف :

— أأنت منحرف المزاج ؟ أخبرنى عن السبب . إننى أخاف حين ينحرف مزاجك ، فلا أدرى أبك صداع أم أنت غاضب على . . .

وران الصمت مرة أخرى بضع دقائق مملة . قالت فى رقة :

— لم تغيرت ؟ لم لم تعد رقيقاً مرحاً كما اعتدت أن تكون فى شارع زنامنسكى ؟ لقد مضى على معك قرابة الشهر ، ولكن يبدو لى أننا لم نبدأ الحياة بعد ، ولم نتكلم عن شئ كما ينبغى أن نفعل . أنت تجيبنى دائماً بفكاهة أو محاضرة طويلة باردة كأنك أستاذ . وفكاهاتك فيها برود أيضاً . . . لم انصرفت عن الحديث الجاد معى ؟

— أنا أجد دائماً فى كلامى .

— حسناً . لنتحدث إذن . بالله يا جورج . . . هل لنا أن نتحدث ؟

— يقيناً . ولكن عم ؟

قالت زينايدا فيودورفنا حالمة :

— لنتحدث عن حياتنا . عن مستقبلنا . أنا لا أزال أرسم الخطط لحياتنا . الخطط الكثيرة . وأنا أستمتع بذلك ! جورج ، سأبدأ بهذا السؤال : متى تترك وظيفتك ؟

سأل أورلوف رافعاً يده عن جبينه :

— ولم ؟

— إن أفكارك لا تتفق وبقاءك فى الوظيفة . لا محل لك هناك .

ردد أورلوف :

— أفكارى ؟ أفكارى ؟ أنا موظف عادى بمعتقدى ومزاجى واحد من أبطال شدرين . أؤكد لك أنك تخلعين على ما ليس فى .

— جورج . أتهزل من جديد ؟

— ألبتة . قد لا أكون قانعاً بالوظيفة ، ولكنها على أية حال خير لى من غيرها . لقد اعتدتها ، وفيها ألقى أناساً على شاكلتى . إن مكانى هناك ، وأنا أجده محتملا .

— أنت تكره الوظيفة ، هى تثير حنقك .

— كذا ؟ أتظنين أنى لو تركت وظيفتى واستسلمت لأحلام اليقظة والعيش فى عالم آخر ، أيكون ذلك العالم أحب إلى من الوظيفة ؟

غضبت زينايدا فيودورفنا ، ونهضت . قالت :

— إنك لتذم نفسك كى تعارضنى . أنا آسفة لأنى بدأت هذا الحديث .

— لم تغضبين ؟ أنا لم أغضب منك لأنك لست موظفة . إن كل إنسان يعيش على هواه .

مضت زينايدا فيودورفنا تقول وقد عقدت يديها يائسة :

— لكن أتعيش أنت على هواك ؟ أأنت حر ؟ أنت تقضى حياتك فى كتابة وثائق تخالف أفكارك ، وتخضع للسلطات وتهنئ رؤساءك بالسنة الجديدة ، ثم الورق ولا شئ غير الورق : الأدهى أن تعمل لنظام بغيض إليك . لا . لا

يا جورج . لا ! لا ينبغى أن تصدر عنك مثل هذه الفكاهات الغليظة . هذا فظيع . أنت رجل أفكار ، وينبغى أن تعيش لأفكارك وحسب .

زفر أورلوف :

— أنت حقاً تجردين منى رجلا يختلف عن الواقع .

فقالت زينايدا فيودورفنا بين دموعها :

— قل إنك لا تريد أن تكلمنى . أنت تكرهنى وحسب .

قال أورلوف لائماً وهو يجلس فى كرسيه :

— إسمعى يا عزيزتى . لقد سرك أن تقولى إنى رجل واسع الاطلاع ، وتعليم من يعلم لا يأتى إلا بالضرر . أنا أعلم الأفكار كلها جيداً ، الكبير منها والصغير ، وهو ما تعنينه حين تسميننى رجل أفكار . وإذن فاذا فضلت الوظيفة ولعب الورق على تلك الأفكار ، كان عليك أن تثقى بأن لدى ما يدعونى إلى ذلك . هذا شئ . ثم إنك ، فيما أعلم ، لم تكونى موظفة قط ولم تكونى آراءك عن خدمة الحكومة إلا من الحكايات والقصص اللاهية . وإذن فليس من الخطأ أن نتفق اتفاقاً نهائياً على ألا نتحدث فى الأشياء التى نعرفها من قبل أو الأشياء التى لا نصلح للحديث عنها .

قالت زينايدا فيودورفنا متراجعة كالمذعورة :

— لم تحدثنى على هذا النحو؟ لم؟ فكر بالله يا جورج فيما تقول .

اختلج صوتها وانقطع . كان واضحاً أنها تحاول أن تحبس

دموعها ، ولكنها انفجرت باكية . قالت بالفرنسية وقد سقطت أمام أورلوف ووضعت رأسها على ركبتيه :

— أنا أذوى يا حبيبي جورج . أنا تعسة . أنا مجهدة . لا أطيق . لا أطيق . . . فى طفولتى زوجة أبى الشريرة البغيضة ثم زوجى ، والآن أنت . . . أنت ! أنت تقابل ولهى بالبرود والسخرية . . .

ومضت تقول باكية :

— وتلك الخادم الفظيعة الوقحة . نعم . نعم . أنا لست زوجتك أو صديقتك بل امرأة لا تحترمها لأنها أصبحت خليلتك... سأقتل نفسى .

لم أكن أتوقع أن تؤثر كلماتها ودموعها فى أورلوف ذلك التأثير ، فقد احمر وجهه وتململ فى كرسيه ، وانطبع على محياه مكان السخرية ، غباء وفزع صبيانى . تمتم خائراً وهو يلمس شعرها وكتفيها :

— يا حبيبتى . لقد أخطأت فهمى . أرجوك أن تغفرى لى . لقد ظلمتك وإنى لأكره نفسى .

— بل أنا أهينك بأنينى وشكايتى . . . أنت رجل صادق كريم . . . نادر — أنا أشعر بذلك دائماً . ولكنى كنت خائرة العزم فى الأيام الأخيرة .

واندفعت زينايدا فيودورفنا تعانق أورلوف وتقبله على خده . قال :

— أرجوك ألا تبكى . . .

— لا . لا . . . كفانى ما بكيت . إننى الآن أحسن حالا .

قال وهو مايزال يتململ فى كرسيه :

— أما الخادم فسترحل غداً .

— لا يا جورج يجب أن تبقى . أتسمع ! أنا لا أخشاها الآن . . . ينبغى على المرء أن يسمو على التفاهات ، ولا يتخيل الأشياء السخيفة . أنت على حق . أنت رجل رائع نادر .

سرعان ما كفت عن البكاء . وأخذت تقص على أورلوف بصوت خفيض والدموع تلمع بين أهدابها ، وقد جلست على ركبتيه ، شيئاً حبيباً ، شيئاً كذكرى الطفولة والصبا . كانت تمسح وجهه ، وتقبله ، وتفحص يديه بما عليها من خواتم ، وتدقق النظر فى النقوش التى على سلسلة ساعته . كانت منتشية بما تقول وبقربها من الرجل الذى تحب ، ولعل الدموع التى ذرفتها قد أصفت نفسها وأنعشتها فكان فى صوتها نبرة رائعة من الصراحة والاخلاص . وكان أورلوف يعبث بشعرها الكستنائى ويقبل يديها بلا صوت وهو يضغطهما على شفتيه .

ثم تناولا الشاى فى حجرة المكتب ، وقرأت زينايدا فيودورفنا بعض الخطابات جهراً ، وبعد منتصف الليل بقليل ذهبا إلى الفراش .

كان جنبى يؤلمنى ألماً شديداً فى تلك الليلة ، ولم أستطع أن أحس الدفء أو أنام حتى الصباح ، فسمعت أورلوف يذهب من غرفة النوم إلى المكتب . وبعد أن جلس هناك قرابة

الساعة دق الجرس فذهبت إلى المكتب بملابس النوم حافياً ، وقد أنسانى الألم والاجهاد كل عرف ونظام . كان أورلوف واقفاً ينتظرنى عند عتبة الباب وقد ارتدى عباءة وقلنسوة . قال بغلظة :

— ينبغى أن تأتى مرتدياً ملابسك حين يرسل فى طلبك . أحضر شموعاً جديدة .

كدت أعتذر ولكن أصابتنى فجأة سعلة حادة ، فتعلقت بالباب أتقى السقوط . قال أورلوف :

— أمريض أنت ؟

أظن تلك هى المرة الأولى التى خاطبنى فيها أورلوف منذ تعارفنا بصيغة الاحترام — يعلم الله لماذا . وأغلب الظن أنى بملابس النوم وبوجهى وقد شوهه السعال ، لم أحسن القيام بدورى ولم أشبه الخادم إلا قليلا . قال :

— لم تعمل إذا كنت مريضاً ؟

أجبت :

— كى لا أموت جوعاً .

قال فى رقة وهو يذهب إلى منضدته :

— ما أفظع الأمر كله !

وضعت شموعاً جديدة وأوقدتها وأنا ألبس معطفى بسرعة. وكان أورلوف جالساً إلى المنضدة وقد مد ساقيه على كرسى واطئ وأخذ يفض كتاباً . تركته شاردا ولم يسقط الكتاب من يده كما سقط فى المساء .

٧

يكبحنى الآن وأنا أكتب هذه السطور ، خوفى أن أبدو عاطفياً مضحكا — ذلك الخوف الذى غرس فى منذ الطفولة . أنا لا أدرى كيف أكون طبيعياً حين أريد أن أتودد أو أقول شيئاً رقيقاً . والآن يمنعنى ذلك الخوف وقلة التجربة أيضاً — من أن أعبر تعبيراً واضحاً عما كان يمر بنفسى فى ذلك الوقت.

لم أكن أحب زينايدا فيودورفنا ، ولكن الاحساس الانسانى العادى الذى أحمله لها ، كان فيه من الشباب والنضارة والفرح مالم يكن فى حب أورلوف . .

حين كنت أعمل فى الصباح فى مسح الأحذية أو تنظيف الغرف ، كنت أنتظر فى لهفة اللحظة التى أسمع فيها صوتها ووقع أقدامها . ليتك تدرك ما كان يعنيه عندى أن أقف لأرقبها وهى تشرب قهوتها فى الصباح ، أو تتناول غداءها ، وأن أحمل لها سترة الفراء فى الردهة ؛ وأن أضع حذاء المطاط فى قدميها الصغيرتين وقد أراحت يدها على كتفى ؛ وأن ألقاها عند الباب مقرورة موردة مذرورة بالصقيع ؛ وأن أصغى إلى تعليقاتها المقتضبة على الصقيع أو سائق العربة . كنت أتوق إلى أن أحب ، وأن تكون لى زوجة وطفل . كنت أريد لزوجتى المقبلة مثل ذلك الوجه والصوت . كنت أحلم بذلك عند العشاء وفى الطريق حين كنت أرسل فى طلبة ، وحين كنت أرقد يقظان بالليل . كان أورلوف ينفر من الأطفال

ومن الطبخ والقدور النحاسية وتفاهات النساء ، وكنت أعلم ذلك كله وأحتضنه فى أحلامى ، وأحبه ، وأسأل القدر أن يمنحنى إياه . كنت أحلم بزوجة ومحضن وبيت صغير ومماشى فى الحديقة .

كنت أعلم أنى لو أحببتها حقاً ، لما أملت فى أن تقع المعجزة وتستجيب لحبى ؛ ولكن التفكير فى ذلك لم يكن يزعجنى . لم يكن فى إحساسى الهادئ المتواضع القريب من العطف العادى ، غيرة من أورلوف ولا حسد له ، إذ كنت أعلم أن السعادة لرجل محطم مثلى لا توجد إلا فى الأحلام .

كنت أتعذب مع زينايدا فيودوروفنا حين تجلس فى الليل تنتظر حبيبها جورج ، وقد جمدت نظرتها على كتاب لم تقلب منه صفحة ؛ أو حين كانت ترتعد وتشحب لمرور بوليا فى الغرفة ، وخطر لى أن أنكأ ذلك الجرح الخبيث فأسارع باخبارها بما يقال هنا أيام الخميس على العشاء ، ولكن كيف أخبرها بذلك ؟ ازدادت رؤيتى لدموعها على الأيام . كانت فى الأسابيع الأولى تضحك وتغنى لنفسها حتى حين لا يكون أورلوف بالمنزل ولكن سكوناً كئيباً خيم على مسكننا مع الشهر الثانى ولم يكن ينقطع إلا فى أمسيات الخميس .

كانت تتملق أورلوف ، ولا تجد بأساً فى أن تركع أمامه وتتمسح به كالكلب حتى تغتصب منه بسمة أو قبلة مزورة . بل إنها كانت إذا مرت بمرآة وهى شديدة الكآبة لم تستطع أن تقاوم النظر إليها وتسوية شعرها . كان يبدو لى غريباً

أنها مازالت تعنى بالثياب وتنتشى فرحاً بما تشتريه . إن ذلك لم يكن ينسجم مع حزنها الصادق . كانت تعنى بالأزياءالمبتدعة وتوصى بثياب غالية . لم ؟ وعلى حساب من ؟ أذكر بخاصة ثوباً كان ثمنه أربعمائة روبل . أتدفع أربعمائة روبل فى ثوب لا لزوم له ، ولا نفع فيه ، على حين لا تحصل النساء لقاء عملهن الشاق طوال اليوم إلا على عشرين كوبكا بغير طعام، ولا ينقد من يصنعن وشى فينيسيا و بروكسل إلا نصف فرنك فى اليوم ، زعماً بأنهن يستطعن أن يكسبن الباقى من طريق غير شريف؟ عجبت ، وغاظنى أن زينايدا فيودورفنا لا تعى ذلك ، ولكنها ما كانت تخرج من المنزل حتى ألتمس لها عذراً وتفسيراً لكل شئ ، وأنتظر فى شغف أن يقرع لى البواب الجرس .

كانت تعاملنى كخادم ، كمخلوق أدنى مرتبة . وقد يدلل المرء كلباً ولكنه مع ذلك لا يحس وجوده . كانت توجه إلى الأسئلة فأجيب عنها ولكن دون أن تحس وجودى . كان سيدى وسيدتى يستنكفان من أن يحدثانى بأكثر مما يحدث به الخدم ، ولو أنى ضحكت وأنا أقوم بالخدمة عند العشاء أو شاركت فى الحديث بكلمة ، لظنا بى الجنون وطردانى . على أن زينايدا فيودورفنا كانت رفيقة بى . فاذا أرسلتنى فى شئ أو شرحت لى طريقة مصباح أو شئ من هذا القبيل ، بدا محياها رفيقاً صريحاً لطيفاً ، ونظرت بعينيها فى وجهى . كنت إخالها فى تلك اللحظات تذكر شاكرة كيف اعتدت أن أحمل

إليها الرسائل فى شارع زنامنسكى . و إذا دقت الجرس قالت بوليا ببسمة هازئة — وكانت ترانى مقرباً إلى السيدة وتكرهنى لذلك :

— إذهب . إن سيدتك تريدك .

كانت زينايدا فيودورفنا ترانى مخلوقاً أدنى مرتبة منها ، وما كان يدور بخاطرها أنه ، إن كان فى المنزل فرد ذليل ، فانها هى ذلك الفرد . ما كانت تعلم أنى — أنا الخادم — كنت أشقى من أجلها ، وأسأل نفسى عشرين مرة كل يوم ماذا يخبئه لها القدر ، وكيف تكون النهاية . كان جلياً أن الأمور تزداد سوءاً على الأيام . لا شك أن أورلوف — الذى لم يكن يستطيع احتمال البكاء — قد بدأ يتجنب الحديث معها بعد ذلك المساء الذى تحدثا فيه عن عمله الرسمى . فكلما أخذت زينايدا فيودورفنا تجادل أو تتوسل إليه ، أو بدت على وشك البكاء ، تلمس عذراً ما للعكوف فى حجرة المكتب أو الخروج . وكثر تخلفه عن النوم فى المنزل ، وكان تخلفه عن العشاء أكثر . وفى أيام الخميس كان هو الذى يوحى إلى أصدقائه بسهرة ما . وكانت زينايدا فيودورفنا ماتزال تحلم بالطهى فى المنزل ، والانتقال إلى مسكن جديد ، والرحلة فى الخارج ، ولكن أحلامها بقيت أحلاماً . كان الطعام يجلب من المطعم ، وقد سألها أورلوف ألا تثير مسألة الانتقال إلا بعد العودة من الخارج ؛ وأما عن الرحلة فقد أعلن أنهما لا يستطيعان أن يرحلا حتى يطول شعره ، إذ لا يجوز أن يتنقل المرء بين الفنادق ويخدم الفكرة دون شعر طويل .

يتم هذا كله ، أن كوكوشكين أخذ يتردد على المسكن في المساء في غيبة أورلوف . لم يكن في سلوكه شيء غير عادى ولكنى لا أستطيع أن أنسى الحديث الذى عرض فيه أن يخلص أورلوف . كان يتحف بالشاى والنبيذ الأحمر ، وكان من عادته أن يكتم الضحك ويعلن ، رغبة في أن يقول شيئاً ساراً ، أن الرابطة الحرة تفضل الزواج الشرعى من جميع الوجوه ، وأن الفضلاء من الناس ينبغى أن يأتوا إلى زينايدا فيودورفنا و يجثوا عند أقدامها .

٨

انقضى عيد الميلاد كئيباً في توقع غامض للكارثة . وفى يوم رأس السنة أعلن أورلوف بغتة على الافطار أن عليه أن يعاون أحد الشيوخ في مهمة تفتيشية باحدى المقاطعات . قال مغيظاً :

— أنا لا أريد الذهاب ، ولكنى لا أستطيع الاعتذار . علىّ أن أذهب ولا حيلة في ذلك .

سرعان ما احمرت عينا زينايدا فيودورفنا لهذا النبأ ، سألت :

— أتغيب طويلا ؟

— خمسة أيام أو نحوها .

قالت بعد أن فكرت لحظة :

— أنا سعيدة لذهابك حقاً ، فان في ذلك ترويحاً عنك .

وستقع فى حب امرأة ما فى طريقك ثم تعود فتحدثنى عن ذلك.

كانت تحاول فى كل فرصة أن تشعر أورلوف بأنها لاتقيد حريته تقييداً ما ، وبأنه يستطيع أن يعمل مايحب ، ولكن تلك الخطة الساذجة الشفافة لم تكن تخدع أحداً ، بل كانت تذكر أورلوف ، دون حاجة ، بأنه ليس حراً .

قال وبدأ يقرأ الصحيفة :

— أنا ذاهب هذا المساء .

أرادت زينايدا فيودورفنا أن تودعه على المحطة ، ولكنه صرفها عن ذلك قائلا إنه ليس ذاهباً إلى أمريكا ، ولن يغيب خمس سنين ، وإنما هى خمسة أيام أو أقل .

افترقا بين السابعة والثامنة ، فطوقها بذراع ، وقبلها على شفتيها وجبينها . قال فى نبرة حارة حانية حتى لقد أثرت فى نفسى :

— كونى فتاة طيبة ، ولا تكتئبى فى غيبتى . رعاك الله .

كانت تنظر إلى وجهه فى شره لتطبع ملامحه العزيزة على ذاكرتها ، ثم وضعت ذراعيها فى حنان حول عنقه وألقت رأسها على صدره . قالت بالفرنسية :

— اغفر لى خلافاتنا . إن الزوجين لابد أن يتنازعا ماداما متحابين . وأنا أحبك بجنون . لا تنس . . . أبرق إلى كثيراً وأطنب .

قبلها أورلوف مرة أخرى ، وذهب مرتبكا دون أن يفوه بكلمة . وحين سمع صكة القفل إذ أغلق الباب وقف فى وسط

الدرج متردداً ونظر إلى أعلى . وقد بدا أنه لو انتهى إليه صوت من فوق لعاد أدراجه ، ولكن كان كل شئ هادئاً ، فسوى سترته وهبط الدرج متردداً .

كانت الزلاجات قد لبثت تنتظر عند الباب وقتاً طويلا ، فركب أورلوف واحدة ، وركبت فى الأخرى وسعى حقيبتان . كان الصقيع شديداً ، ودخان النيران ينبعث من الدروب الجانبية ، والريح الباردة تخز وجهى ويدى وتكتم أنفاسى ونحن نغذ السير . فكرت وأنا أغمض عينى أى امرأة رائعة هى ! كم تحبه ! إن الكناسة لتجمع فى هذه الأيام من الأفنية وتستخدم فى غرض ما ، بل إن الزجاج المكسور ليعتبر سلعة نافعة ، ولكن شيئاً ثميناً نادراً كحب امرأة رقيقة شابة ذكية فاضلة ، يهمل هذا الاهمال ويضيع ! لقد رأى أحد رجال الاجتماع الأوائل أن كل رغبة شريرة يمكن أن تجعل فاضلة ، بينما تنبثق بيننا العاطفة الرقيقة النبيلة وتفنى مخذولة مغمورة وقد ابتذلها الناس أو قصروا عن فهمها . لم ذلك ؟

وقفت الزلاجات بغتة ، ففتحت عينى ورأيت أنا وقفنا فى شارع سرجيفسكى إلى جانب منزل كبير كان يعيش فيه بكارسكى . غادر أورلوف الزلاجة واختفى فى المدخل ، وبعد خمس دقائق خرج خادم بكارسكى عارى الرأس وصاح بى وقد أغضبه الصقيع :

— أأنت أصم ؟ انقد السائق واصعد إلى فوق . إنهم يريدونك .

صعدت إلى الطبقة الأولى وأنا فى حيرة تامة . لقد جئت إلى مسكن بكارسكى من قبل ، أعنى أنى وقفت فى الردهة ونظرت إلى الثوى ، وكان يبدهنى دائماً ، بعد الشارع الرطب الكئيب ، بروعة إطارات الصور ، وبتحفه البرونزية ، وأثاثه الثمين . رأيت اليوم وسط هذه الروعة جروزين وكوكوشكين ثم أرلوف . قال قاصداً إلى :

— اسمع يا استيفان . سأبقى هنا حتى يوم الجمعة أوالسبت فاذا أتتنى برقيات أو رسائل كان عليك أن تحضرها إلى هنا كل يوم . وستقول فى البيت طبعاً إنى رحلت ، وتبلغهم تحياتى . تستطيع الآن أن تذهب .

حين عدت إلى المنزل كانت زينايدا فيودورفنا مستلقية على أريكة فى الثوى تأكل كمثراة . ولم يكن فى حامل الشموع سوى شمعة واحدة مضيئة . سألت زينايدا فيودورفنا :

— هل أدركتما القطار؟

— أجل يا سيدتى . إن صاحب السعادة يبعث بتحياته .

ذهبت إلى غرفتى ورقدت أنا أيضاً . لم يكن عندى ما أعمله ، ولم أكن أريد القراءة . لم أكن دهشاً ولا ساخطاً ، ولكنى كددت ذهنى أبحث عن سبب لهذا الخداع . إن الفتيان دون العشرين هم وحدهم الذين يخدعون خليلاتهم على هذا النحو . كيف لم يتأت لرجل على مثل ذلك الحظ من التفكير والثقافة أن يتخيل شيئاً أحكم من هذا ؟ وأعترف أنى لم أكن أبخسه حقه من الذكاء ، بل أعتقد أنه لو شاء أن يخدع وزيره

أو غيره من أصحاب النفوذ لأبدى فى ذلك حذقاً واجتهاداً ؛ ولكنه رأى بلا ريب أن أول مايخطر فى ذهنه كاف لخداع امرأة . فاذا نجحت الفكرة فأنعم بها ، وإلا فلا بأس — يستطيع أن يكذب عليها كذبة أخرى سريعة يسيرة دون أن يجهد ذهنه .

دقت زينايدا فيودورفنا لى الجرس من الغرفة المجاورة للمكتب عند منتصف الليل . وحين كان أهل المسكن الذى فوقنا يحركون كراسيهم ، ويصيحون مبتهجين بالعام الجديد ، كانت هى جالسة إلى المنضدة وقد أجهدها الرقاد الطويل ، وراحت تخط شيئاً على قطعة من الورق .

قالت مبتسمة :

— لابد أن أرسل برقية . اذهب إلى المحطة مسرعاً ما استطعت واطلب إليهم أن يرسلوها وراءه .

وحين خرجت إلى الشارع قرأت فى الورقة :

« ليأت العام الجديد بسعادة جديدة . أسرع وأبرق إلىّ .أنا افتقدك كل الافتقاد . تبدو غيبتك دهراً . لست آسف إلاعلى أنى لاأستطيع أن أرسل إليك بالبرق قلبى مع ألف قبلة . روح عن نفسك يا حبيبى . — زينا . »

أرسلت البرقية ، وأعطيتها الايصال فى صباح اليوم التالى .

٩

أسوأ ما فى الأمر أن أورلوف لم يتحرز عن أن يطلع بوليا على سر خداعه ، فطلب إليها أن تذهب بقمصانه إلى شارع سرجيفسكى . فكانت بعد ذلك تنظر إلى زينايدا فيودورفنا بفرح خبيث وحقد لا أستطيع فهمه ، ولم تكن تمل من أن تضحك لنفسها فى سرور بغرفتها أو بالبهو . كانت تقول متلذذة :

— لقد بقيت أكثر مما يجب . لقد آن لها أن ترحل . ينبغى أن تدرك ذلك بنفسها .

كانت تحس بغريزتها أن زينايدا فيودورفنا لن تقيم معنا طويلا ، فلم تضع الفرصة بل استلبت كل ما وقعت عليه عيناها من قنانى العطر ، ودبابيس الشعر الصدفية ، والمناديل والأحذية ! وفى اليوم التالى لعيد رأس السنة طلبتنى زينايدا فيودورفنا إلى غرفتها وأخبرتنى بصوت خفيض أنها تفتقد ثوبها الأسود ، ثم أخذت تجوس خلال الغرف كلها ويبدو على وجهها الشحوب والرعب والاشمئزاز وهى تخاطب نفسها :

— هذا كثير . لقد تجاوز الأمر كل حد . هذه قحة لم يسمع بمثلها .

حاولت عند الغداء أن تصيب شيئاً من الحساء ولكنها لم تستطع : لقد كانت يداها ترتجفان ، وكانت شفتاها ترتعدان أيضاً . كانت تنظر إلى الحساء و إلى الكعكات الصغار وهى

خائرة تنتظر زوال الرعدة ، وبغتة لم تستطع أن تمنع نفسها من النظر إلى بوليا . قالت :

— يمكنك أن تذهبي يا بوليا . إن استيفان وحده يكفى

أجابت بوليا :

— لا بأس عندى فى البقاء .

فعادت زينايدا فيودورفنا تقول وهى تقف مضطربة أشد اضطراب :

— لا حاجة بك إلى البقاء . اتركى المنزل . ابحثى لك عن مكان آخر . ارحلى توا .

— لا أستطيع أن أذهب دون أن يأمر السيد . إنه ألحقنى بخدمته والأمر له .

قالت زينايدا فيودورفنا وقد احمر وجهها إحمراراً شديداً :

— تستطيعين أن تتلقى الأوامر منى أنا أيضاً . أنا السيدة هنا .

— قد تكونين السيدة ، ولكن السيد وحده هو الذى يستطيع طردى . إنه هو الذى ألحقنى بخدمته .

صاحت زينايدا فيودورفنا وهى تقرع الطبق بسكينها :

— لا تبقى هنا لحظة بعد الآن . أنت لصة . أتسمعين ؟

رمت زينايدا فيودورفنا فوطتها على المائدة ، وأسرعت بالخروج من الغرفة بوجه معذب يثير الاشفاق . وخرجت بوليا أيضاً وهى تنتحب وتولول بشئ غير واضح . بردت القطاة والحساء ولأمر ما لاحت لى أطايب المطعم حقيرة لصة مثل

بوليا ، وكان على كعكتين فى طبق مسحة من التعاسة والاثم . خيل لى أنهما تقولان : « سنعاد إلى المطعم اليوم . وغداً نقدم لموظف أو مغن شهير . »

سمعت بوليا من غرفتها تتمتم :

— هى سيدة لطيفة حقاً . لقد كنت أستطيع منذ زمن بعيد أن أكون سيدة من هذا الطراز ، ولكن لى شيئاً من احترام النفس ! سنرى أينا تذهب أولا .

دقت زينايدا فيودورفنا الجرس . كانت جالسة فى ركن من غرفتها وكأنها وضعت فى ذلك الركن عقاباً لها . سألت :

— ألم تأت برقية ؟

— كلا يا سيدتى .

— اسأل البواب فقد تكون هناك برقية .

وصاحت خلفى :

— ولا تترك المنزل . أنا أخشى أن أترك وحيدة .

وكان علىّ بعد ذلك أن أهبط كل ساعة أسأل البواب هل جاءت برقية . أعترف أن ذلك الوقت كان شنيعاً ! تناولت زينايدا فيودورفنا الغداء والشاى فى غرفتها حتى تتجنب بوليا، وهناك نامت أيضاً على أريكة قصيرة كالهلال ، وأعدت فراشها بنفسها . كنت أذهب فى الأيام الأولى بالبرقيات ولكنها فقدت ثقتها بى حين لم يأت جواب ، وراحت ترسل البرقيات بنفسها ، وبدأت حين أنظر إليها أترقب أنا أيضاً أن تأتى برقية . كنت أرجو أن يدبر خدعة ما ، فيرتب مثلا أن

ترسل إليها برقية من إحدى المحطات . وظننت أن جروزين أو كوكوشكين كانا خليقين أن يذكراه بنا ، إن كان قد شغل بالورق أو تعلق بامرأة أخرى . ولكن توقعنا كان عبثاً . كنت أذهب إلى زينايدا فيودورفنا خمس مرات فى اليوم ، وفى نيتى أن أصارحها بالحقيقة ، ولكن عينيها كانتا تثيران الشفقة كعينى ظبى ؛ وقد تخاذلت كتفاها ، وارتعدت شفتاها ، فكنت أخرج دون أن أنبس بكلمة . كان الاشفاق والعطف يجردانّى من كل رجولة . وكانت بوليا ترتب مكتب السيد وغرفة نومه فرحة راضية كأن لم يحدث شئ ، وتفتش فى الصوانات ،وتقرقع بالأوانى ، فاذا سرت زينايدا فيودورفنا تمتمت بشئ ما وسعلت . كان يسرها أن سيدتها تختبئ منها . وفى المساء كانت تخرج إلى مكان ما ، وتعود فى الثانية . وكان على أن أفتح لها الباب وأصغى لما تقوله عن سعلتى . وسرعان ما كنت أسمع بعد ذلك رنين الجرس ، فأركض إلى الغرفة المجاورة للمكتب حيث تبرز زينايدا فيودورفنا رأسها من الباب وتسأل وهى تنظر إلى يدى لترى هل معى برقية :

— من دق الجرس ؟

وحين دق جرس الباب أخيراً يوم السبت ، وسمعتْ على الدرج الصوت المألوف ، استبد بها الفرح وانفجرت باكية . اندفعت لتقابله ، وعانقته وقبلته على صدره وأكمامه ، وغمغمت بشئ لا يفهم . وصعد البواب بالحقائب ، وسمع صوت بوليا المرح — بدا المنزل كأن أحداً عاد إليه ليقضى عطلته .

سألت زينايدا فيودورفنا وهى تلهث من الفرح :

— لم لم ترسل برقية ؟ لم ؟ لقد كنت فى شقاء لا أدرى كيف مررت به . . . آه ، يا إلهى !

قال أورلوف :

— الأمر يسير ! لقد عدت مع الشيخ إلى موسكو فى اليوم الأول ، فلم أتلق برقيات . سأقص عليك يا حبيبتى بعد الغداء كل ما عملته . لابد لى الآن من النوم الطويل . . . لقد أتلفتنى الرحلة .

كان واضحاً أنه لم ينم ليلته ، فلعله قضاها يلعب الورق ويشرب فى إسراف . وقد ذهبت به زينايدا فيودورفنا إلى فراشه ، وبقينا طول اليوم نمشى على أطراف الأصابع . ومر الغداء بسلام . ولكن العتاب بدأ حين ذهبا إلى المكتب يشربان القهوة . فأخذت زينايدا تتحدث بسرعة وبصوت خفيض عن شئ ما . كانت تتحدث بالفرنسية وكلماتها تنساب كالغدير . ثم سمعت أورلوف يزفر زفرة عالية ، وسمعته يقول بالفرنسية :

— يا إلهى . أليس لديك شئ جديد تقولينه سوى هذه القصة التى لا تنتهى عن أخطاء خادمك ؟

— ولكنها سرقتنى يا عزيزى ووجهت إلى الاهانات .

— ولم لا تسرقنى أنا أو توجه إلى إهانة ؟ لم لا ألحظ أنا الخدم أو البوابين أو الوصفاء ؟ أنت نزقة يا عزيزتى ترفضين أن تعرفى نفسك . . . الحق أنى بدأت أشك أنك فى حالة خاصة ،

فحين عرضت عليك أن ترحل صممت على بقائها ، والآن تريدين أن أطردها . أنا أيضاً أستطيع أن أكون عنيداً فى مثل هذه الأحوال . أنت تريدين طردها وأنا أريدها أن تبقى : هذه هى الطريقة الوحيدة لشفاء أعصابك .

صاحت زينايدا فيودورفنا فزعة :

— حسناً . حسناً . . . لنضرب عن هذا الحديث . . . لنؤجله إلى غد . . . حدثنى الآن عن موسكو . . . ماذا يجرى فى موسكو؟

١٠

فى اليوم التالى — وكان السابع من يناير وهو يوم القديس جون — ارتدى أورلوف سترته السوداء بعد الغداء ، ووضع وسامه كى يزور أباه و يهنئه بيوم القديس الذى سمى الأب باسمه . كان عليه أن يخرج فى الساعة الثانية ، ولكنه كان قد ارتدى ملابسه والساعة لم تعد النصف بعد الواحدة . ماذا عساه يصنع فى نصف الساعة الباقى ! أخذ يتمشى فى الثوىّ وهو يلقى بعض أبيات للتهنئة كان قد أنشدها بين يدى أبيه وأمه وهو طفل .

وجلست زينايدا فيودورفنا — وكانت على أهبة الخروج إلى الخياطة أو إلى السوق — تصغى إليه وتبتسم . ولست أدرى كيف بدأ الحديث بينهما ، ولكنى حين ذهبت إلى أورلوف بقفازيه كان واقفاً أمامها بوجه متوسل فيه نزق الأطفال .

وكان يقول :

— أستحلفك بالله ، بكل شئ مقدس ، ألا تتكلمى فى أمر يعرفه الناس جميعاً ! يا للموهبة التعسة التى وهبتها نساؤنا العاقلات المفكرات فى الحديث بحرارة وتعمق عن الأشياء التى ملها كل تلميذ مللا قاتلا ! آه ، لو أنك استبعدت من حياتنا البيتية كل هذه المسائل الخطيرة ! كم أشكرك لو فعلت !

— يبدو أننا — نحن النساء — لا يجوز أن تكون لنا آراء خاصة بنا .

— أنا أسمح لك بكل ما تشائين من التحرر ، وبأن تستشهدى بمن تريدين من المؤلفين ، ولكن لنتفق على شئ واحد : لا تثيرى فى حضرتى أحد هذين الموضوعين : فساد الطبقات الراقية ، وشرور نظام الزواج . أرجو أن تفهمينى أخيراً . إن الطبقة الراقية تعاب دائماً إذا قوبلت بعالم التجار والقساوسة والعمال والفلاحين وزيد وعمرو من كل قبيل . أنا أكره الطبقتين كلتيهما ، ولكنى لو خيرت بينهما لاخترت دون تردد الطبقة الراقية ، ولا أكون فى ذلك مغالطاً أو متكلفاً ، إذ أنها تلائم ذوقى . إن دنيانا تافهة فارغة ولكنا على أية حال نحسن الحديث بالفرنسية ، ونقرأ شيئاً ما ، ولا نلطم الواحد منا على أضلاعه حتى فى أعنف المشاجرات ، بينما زيد وعمرو وسادتهم التجار يتحدثون بمثل : « يا ميت فل » و « ولعه » و « أصفى عينك » ويتبذلون تبذل الحانات ، ويكشفون عن عقلية خرافية مشينة .

— إن الفلاح والتاجر يقدمان لك الطعام .

— نعم . ولكن ماذا فى ذلك ؟ إن هذا حجة علىّ وعليهم أيضاً . إنهما يطعمانّى ثم يرفعان لى قبعيتهما ، ومن ذلك يبدو أنهما ليسا من الذكاء والشرف بحيث يفعلان غير ذلك . أنا لا ألوم أحداً ولا أمتدح أحداً . إنما أقصد أن الطبقة الراقية والطبقة السفلى فى الشر سواء . إنى أكرههما باحساسى وعقلى ولكن ذوقى أميل إلى الطبقة الراقية .

ومضى أورلوف يقول وهو ينظر إلى ساعته :

— أما عن شرور نظام الزواج ، فقد آن لك أن تفهمى أن ليس فى النظام نفسه شرور . وكل ما هناك هو أنكم لا تعلمون ما تريدون من الزواج . ماذا تطلبون ؟ إن الحقيقة الكامنة وراء المعاشرة الشرعية وغير الشرعية ؛ وراء كل صنوف الارتباط — واحدة لا تتغير . وأنتن — أيتها النساء — تعشن لهذه الحقيقة وحدها : هى عندكن كل شئ ، ولا يكون لوجودكن معنى بدونها . أنتن لا ترين شيئاً سواها ، وأنتن تنلنها . ولكن منذ أخذتن فى قراءة الروايات أصبحتن تخجلن منها : أنتن تتخبطن ، وتبدّلن رجالكن مستهترات ، وقد بدأتن تتحدثن عن شرور الزواج حتى تبررن هذا الاضطراب . وما دمتن لا تستطعن ولا تردن التخلى عما يكمن وراء ذلك كله : عن عدوكن الرئيسى ؛ عن شيطانكن ؛ ومادمتن تخدمنه خاضعات فأى فائدة ترجى من مناقشة الأمر فى جد ؟ إن كل ما تقلنه قد يكون مغالطة وتكلفاً . أنا لن أصدق ما تقلنه .

ذهبت أسأل البواب عما إذا كانت الزلاجة واقفة بالباب ، وحين عدت وجدت الأمر قد تطور إلى شجار ، كانت العاصفة قد ثارت — كما يقول الملاحون .

قالت زينايدا فيودورفنا وهى تذرع الثوى فى انفعال شديد :

— أراك تبغى أن تصدمنى اليوم بسوداويتك . يحنقنى أن أصغى إليك . أنا طاهرة أمام الله والانسان ، ولست نادمة على شئ . لقد تركت زوجى وأتيت إليك وأنا فخور بذلك . أقسم بشرفى أنى فخور بذلك .

— حسن إذن .

— إذا كنت رجلا فاضلا شريفاً وجب عليك أنت أيضاً أن تفخر بذلك . إنه يرفعك و يرفعنى فوق آلاف من الناس يتوقون إلى أن يفعلوا ما فعلنا ولكنهم لا يجرءون ، عن جبن منهم أو حذر وضيع . ولكنك لست رجلا فاضلا . . . أنت تخشى الحرية وتسخر من وحى الاحساس الصادق ، خوفاً من أن يتهمك أحد الجهال بأنك مخلص . أنت تخشى أن تقدمنى إلى أصدقائك ، وليس أشق عليك من أن تصحبنى فى الطريق . . أليس ذلك صحيحاً ؟ لم لم تقدمنى هذه المدّة كلها إلى أبيك أو ابن عمك ؟ لم !

وصاحت زينايدا فيودورفنا وهى تدق الأرض بقدمها :

— كلا . لقد ضقت بهذا أخيراً . أنا أطلب ما هو من حقى . يجب أن تقدمنى إلى أبيك .

— إذا شئت أن تعرفيه ، فاذهبي وقدمي نفسك إليه . إنه يقابل الزائرين كل صباح بين العاشرة والعاشرة والنصف .

قالت زينايدا فيودورفنا وهي تضرب في يأسها كفاً بكف :

— يا لك من سافل ! أنا أمقتك لقسوتك حتى لو كنت غير صادق في قولك ، أو كان كلامك لا يعبر عن رأيك . أوه . يا لك من سافل !

— إننا لا نزال ندور وندور ولا نلتقي في النقطة الحقيقية . إن النقطة الحقيقية هي أنك ارتكبت خطأ ولكنك لا تريدين أن تعترفي به . لقد تخيلتني بطلا ، وأني صاحب أفكار ومثل سامية . وإذا بي موظف عادي ولاعب ورق لا يتحمس لنوع من الأفكار . أنا خليق بأن أمثل العالم الفاسد الذي هربت منه لأنه أثارك بتفاهته وفراغك . اعترفي وكوني عادلة ؛ لا تسخطي على بل اسخطي على نفسك لأن الخطأ خطؤك لا خطئي .

— أجل . أعترف أني أخطأت .

— حسن إذن . لقد وصلنا إلى تلك النقطة أخيراً والحمد لله . والآن اسمعي هذا أيضاً ، أرجوك . أنا لا أستطيع أن أرتقي إلى مستواك — فان انحطاطي لا يسمح لي بذلك . وأنت أيضاً لا تستطيعين أن تهبطي إلى مستواي ، لأن سموك لا يسمح لك بذلك . وإذن فلم يبق أمامنا غير شيء واحد ...

فأسرعت زينايدا فيودورفنا تسأل وقد كتمت أنفاسها ، واستحالت فجأة بيضاء كصفحة من الورق :

— ماذا ؟

— إذا استعنّا بالمنطق . . .

فبدهته زينايدا فيودورفنا قائلة بالروسية فى صوت متهالك :

— جورجى . لم تعذبنى؟ لم هذا ؟ فكر فى تعاستى . . .

أسرع أورلوف إلى حجرة المكتب وقد خشى الدموع ، ولست أدرى لم أرتج الباب وراءه ، أكان ذلك إمعاناً منه فى إيلامها ؟ أم لأنه ذكر أن الباب يرتج فى مثل هذه الحالة ؟ صاحت وركضت خلفه ولثوبها حفيف مسموع . دقت الباب صائحة :

— ما معنى هذا ؟ ما . . . معنى هذا ؟

ورددت السؤال بصوت حاد يقطعه الغضب :

— آه . إذن فهذه فعلتك ! دعنى أخبرك أنى أمقتك ، أحتقرك . لقد انتهى كل شئ بيننا الآن .

وسمعت بكاء هستيريا يمتزج بالضحك ، وسقط شئ صغير عن النضد فى الثوى وانكسر . وخرج أورلوف إلى الردهة من باب آخر وارتدى معطفه وهو ينظر حوله فى اضطراب وخرج .

مر نصف ساعة ومرت ساعة وهى ما تزال تبكى . ذكرتُ أن لم يكن لها أب أو أم أو أقرباء ، وأنها كانت تعيش هنا بين رجل يكرهها ، وبوليا التى تسرقها — كم بدت لى حياتها مقفرة ! لست أدرى لم ذهبت إليها فى الثوى . كانت فى ضعفها وانكسارها تبدو بشعرها الجميل كتمثال للحنان والرقة .

كانت تتألم كأنها مريضة ، وكانت مضطجعة على أريكة وقد أخفت وجهها وجسمها كله يرتعد .

سألت بلطف :

— سيدتى ؛ ألا آتى بطبيب ؟

قالت ونظرت إلى بعينيها الدامعتين :

— كلا . . . لا حاجة لذلك — ليس بى شئ . أنا أشكو صداعاً . . . أشكرك .

خرجت وفى المساء كتبت خطاباً بعد خطاب وأرسلتنى إلى بكارسكى ثم إلى جروزين ثم إلى كوكوشكين ، وأخيراً إلى حيثما شئت على أن أجد أورلوف وأعطيه الخطاب . وكانت توبخنى فى كل مرة أعود فيها بالخطاب . وكانت تتوسل إلى ، وتدس النقود فى يدى — كأنها محمومة . ولم تنم الليل كله بل جلست فى الثوى تحدث نفسها .

وعاد أورلوف فى اليوم التالى على العشاء وتصالحا .

وفى أول خميس بعد ذلك شكا أورلوف لأصدقائه من حياته التى لا تطاق ، وأسرف فى التدخين .

قال فى اضطراب :

— ليست هذه حياة . إنها العذاب بعينه : دموع ونحيب وأحاديث عقلية ورجاء فى المغفرة ثم دموع ونحيب من جديد ، وخلاصة الأمر أن لم يعد لى مسكن خاص بى . أنا أشقى وأشقيها معى . لا شك أنى لن أعيش على هذه الحالة شهراً أو شهرين من بعد ! كيف أستطيع ؟ ولكن قد يفرض على ذلك . . .

قال بكارسكى :

— لم لا تتكلم إذن !

— لقد حاولت ولكنى لا أستطيع . إن المرء ليقول الحقيقة بشجاعة ومهما تكن لرجل حر رشيد ، ولكنه فى حالتى هذه يقف أمام مخلوق مجرد عن الارادة ، وعن قوة الشخصية وعن المنطق . أنا لا أطيق الدموع ، فهى تسلبنى كل سلاح ، وحين تبكى أكاد أقسم أن أحبها حباً خالداً ، وأكاد أبكى أنا أيضاً .

لم يفهم بكارسكى ، وحك جبهته العريضة فى اضطراب وقال :

— خير لك أن تستأجر لها مسكناً آخر . الأمر يسير جداً .

زفر أورلوف قائلا :

— هى تريدنى أنا لا المسكن . ولكن ما فائدة الكلام ؟ أنا لا أسمع إلا أحاديث لا تنتهى ، ولا أجد مخرجاً من ورطتى . هذه لا شك حالة أنا فيها « آثم بغير إثم » . لا أظن أنى كمأة ولكن يبدو أن لا مفر من وقوعى فى السلة . إن آخر ما فكرت فيه هو أن أصبح بطلا . أنا لم أستطع قط أن أحتمل قصص ترجنيف ، والآن وعلى غير أهبة تفرض علىّ البطولة وكأن ذلك لاغاظتى . أؤكد لها — بشرفى — أنى لست بطلا ألبتة ، وأقدم إليها براهين قاطعة على ذلك ولكنها لا تصدقنى . لم لا تصدقنى أظن أن فىّ شيئاً من سمات البطولة !

قال كوكوشكين ضاحكا :

— خير لك أن تذهب فى دورة تفتيشية بالأقاليم .

— أجل . هذا كل ما بقى لى .

وبعد أسبوع من هذا الحديث أعلن أورلوف أنه أسر من جديد بمرافقة الشيخ ، وذهب فى المساء نفسه بحقائبه إلى دار بكارسكى .

١١

وقف عند الباب رجل شيخ فى الستين يرتدى معطف فراء يصل إلى الأرض ، وعلى رأسه قبعة من فراء البيدستر . سأل :

— هل جورجى إيفانتش بالمنزل ؟

ظننته أول الأمر أحد المرابين من دائنى جروزين الذين كانوا يأتون إلى أورلوف أحياناً يتقاضون دفعات صغيرة من ديونهم ، ولكنه حين دخل الردهة ، وفتح معطفه رأيت الحاجبين الكثيفين والشفتين المزمومتين اللتين كنت أعرفهما جيداً من الرسوم ، ورأيت صفين من النجوم على البزة العسكرية عرفت فيه الشيخ والد أورلوف ، السياسى الممتاز .

أجبت بأن جورجى إيفانتش لم يكن بالمنزل ، فلوى الشيخ شفتيه بصرامة ونظر فى الفضاء يفكر وقد بدت لى منه صفحة وجهه الجافة الدرداء . قال :

— سأترك له كلمة . أدخلنى إلى المكتب .

ترك حذاء المطاط فى الردهة ، ودلف إلى المكتب دون أن يخلع معطف فرائه الثقيل ، وهناك جلس أمام المنضدة وفكر ثلاث دقائق قبل أن يتناول القلم ، وهو يظلل وجهه

بيديه كأنما يتقى الشمس كما يفعل ابنه حين ينحرف مزاجه . كان يبدو على وجهه الحزن والتفكير ونظرة الاستسلام التى لم أرها إلا على وجوه الشيوخ المتدينين . وقفت خلفه أنظر إلى رأسه الأصلع ، و إلى الأخدود الذى فى قفاه ، وظهر فى مثل وضح النهار أن ذلك الرجل الضعيف الشيخ كان الآن فى قبضتى . لم يكن فى المسكن أحد إلا أنا وعدوى . ما كان على إلا أن أستخدم قليلا من العنف الجسدى ثم أنتزع ساعته حتى أخفى الغرض من الجريمة ، وأفر من الطريق الخلفى ، وأجنى بذلك فوق كل ما تخيلت أن أجنيه إذ قمت بدور الخادم . فكرت أن لن تسنح لى فرصة كهذه ؛ ولكنى لم أعمل بل أخذت أنظر شارداً إلى صلعته ثم إلى فرائه ، وأتأمل علاقة الرجل بابنه الوحيد ، وأفكر فى أن الذين أفسدهم السلطان والثروة قد لا يرغبون فى الموت . سأل وهو يكتب بأحرف كبيرة شيئاً على الورق :

— أمضى عليك فى خدمة ابنى وقت طويل ؟

— ثلاثة أشهر يا صاحب السعادة .

أتم الخطاب ووقف . كانت الفرصة ما تزال أمامى . استنهضت نفسى وجمعت قبضتى ، أحاول أن أثير فى نفسى بقية من الحقد القديم . وتذكرت الحقد الشديد الملح العنيد الذى كنت أضمره له منذ قليل . . . ولكن من الصعب أن تقدح ثقاباً على حجر متفتت . لم يعد الوجه الحزين الشيخ ، و بريق أنجمه الباردة يثير فىَّ إلا أفكاراً حقيرة تافهة

لا ضرورة لهـا عن زوال كل شئ أرضى ، وعن دنو المـوت .

قال الشيخ :

— سعد يومك يا أخى .

ووضع قبعته وخرج .

لقد تغيرت ما فى ذلك شك ، لقد تبدلت . ولـكى أقنع نفسى أخذت أذكر الماضى ، ولـكن سرعان ما ضقت بذلك كأنى استرقت النظر عفواً إلى ركن مظلم رطب . ذكرت رفاقى وأصدقائى ، وكان أول ما خطر لى أن كيف أخجل وأضطرب لو أنى لقيت واحداً منهم . ماذا أنا الآن ؟ أى شئ لدى أفكر فيه أو أعمله ؟ إلى أين أذهب ؟ لماذا أعيش ؟

لم أستطع أن أخرج من ذلك كله بشئ ؛ لـكنى كنت أدرك أمراً واحداً — أنى يجب أن أسرع بجمع أشيائى ثم أرحل . لقد كان لاشتغالى بالخدمة معنى قبل زيارة الشيخ ، ولـكنه الآن شئ سخيف ، كانت الدموع تتساقط فى حقيبتى المفتوحة ، كنت أحس حزناً لا يطاق ، ولـكن كم كنت أتوق إلى الحياة ! كنت أود لو أحتضن وأطوى فى حياتى القصيرة كل فرصة تعرض للانسان . كنت أريد أن أتـكلم وأقرأ ، وأقوم بالطرق فى مصنع كبير ، وأقف للحراسة ، وأحرث . كنت أتوق إلى طريق نفسكى ، وإلى البحر والحقول — إلى كل مكان يهفو إليه خيالى . وحين عادت زينايدا فيودورفنا ، أسرعت أفتح لها الباب ، ونزعت عنها معطف الفراء . المرة الأخيرة !

زارنا فى ذلك اليوم زائران عدا الشيخ . جاء جروزين

مساء وقد حل الظلام ، ليحمل إلى أورلوف بعض الأوراق ، ففتح درج النضد وتناول الأوراق المطلوبة ، وسألنى وهو يطويها أن أضعها فى الردهة إلى جانب قبعته ، فى حين ذهب هو ليرى زينايدا فيودورفنا . كانت مضطجعة على أريكة فى الثوى وقد جعلت ذراعيها تحت رأسها ، وكانت قد مرت خمسة أيام أو ستة منذ رحل أورلوف فى دورته التفتيشية ، ولم يكن أحد يعلم متى يعود ، ولكنها لم ترسل فى هذه المرة برقيات ولم تكن تتوقعه ، ولم يبد عليها أنها تشعر بوجود بوليا التى ظلت تقيم معنا . كنت أقرأ على وجهها الشاحب الذى غاضت منه كل عاطفة : « ليكن ما يكون » . كانت تريد مثل أورلوف أن تكون شقية لأنها عنيدة . كانت ترقد الأيام على الأريكة لتغيظ نفسها وتغيظ العالم كله ؛ وهى لا ترغب فى شئ ولا تتوقع شيئاً لنفسها سوى الشر . لعلها كانت تتصور عودة أورلوف ، ونزاعها المحتوم معه ، وزيادة انصرافه عنها ، وخيانته لها ، ثم افتراقهما ، ولعلها كانت ترتاح إلى تلك الأفكار المؤلمة . ولكن ماذا تقول لو أنها عرفت الحقيقة الواقعة ؟

قال جروزين وهو يحييها ويقبل يديها :

— أنا أحبك يا عزّابتى . يا لحنانك ! كذلك رحل العزيز جورج . لقد رحل الوغد !

كان يكذب .

وجلس وهو يزفر ويمسح يدها بلطف . قال :

— دعينى أقض معك ساعة يا عزيزتى ، فأنا لا أريد

الذهاب إلى بيتى ، ولا زال الوقت أبكر من أن أذهب إلى بيت بيرشوف . إن آل بيرشوف يحتفلون اليوم بعيد ميلاد ابنتهم كاتيا . إنها فتاة لطيفة !

أتيت له بقدح من الشاى ، و بزجاجة كونياك . فشرب الشاى ببطء وفى تردد ظاهر ، وقال لى باستحياء وهو يعيد إلى القدح :

— أعندك . . . شئ يؤكل يا صديقى ؟ إننى لم أتعش .

لم يكن فى المسكن طعام ، فذهبت إلى المطعم وأتيت له بعشاء الروبل المألوف . قال لزينايدا فيودورفنا وهو يشرب كأس الفودكا :

— نخب صحتك يا عزيزتى . . . إن ابنتى الصغيرة ؛ ابنتك بالتعميد ، تبعث لك بحبها . الطفلة المسكينة ! إنها كسيحة — وزفر — آه ، يا للأطفال ، يا للأطفال ! مهما تقولى يا عرّابتى فجميل أن يكون المرء أباً . إن جورج العزيز لا يستطيع أن يفهم هذا الاحساس .

وعاد يشرب ، وأخذ يأكل بشراهة ، شاحباً نحيلا قد وضع الفوطة على صدره كميدعة الطفل ، وهو يرنو متأثماً كالصبى الصغير ، إلى زينايدا فيودورفنا ثم إلىَّ . كان يبدو أنه ربما بكى لو لم أعطه القطاة أوالفالوذج . وحين شبع دبت فيه الحيوية وبدأ يقص مستضحكا قصة ما عن أسرة بيرشوف ، ولكنه ما لبث أن صمت حين رأى القصة مملة ، ووجد زينايدا فيودورفنا لا تضحك . وشاع إحساس مباغت بالكآبة ، فجلسا فى الثوى

بعد أن أتم عشاءه على ضوء شمعة واحدة وهما لا ينبسان بكلمة . كان يؤلمه أن يكذبها القول ، وكانت هى تريد أن تسأله عن شئ ، ولكنها لا تعقد العزم على السؤال . وكذلك مر نصف ساعة ، ثم نظر جروزين إلى ساعته وقال :

— أظن أن قد حان وقت ذهابى .

— لا . البث قليلا . . . يجب أن نتحدث .

وصمتا من جديد ؛ ثم جلس إلى البيان ، وضرب وتراً ، ثم بدأ يعزف ويغنى فى رقة : « ما الذى يضمره لى الصباح المقبل ؟ » ، ولكنه كعادته نهض بغتة وهز رأسه . قالت زينايدا فيودورفنا :

— اعزف شيئاً .

سأل بهزة من كتفيه :

— ماذا أعزف ؟ لقد نسيت كل شئ . لقد انصرفت عن العزف منذ زمن طويل .

ثم نظر إلى السقف كأنما يحاول أن يتذكر ، وعزف قطعتين لتشايكوفسكى عزفاً رائعاً بارعاً حاراً . كان وجهه — كشأنه دائماً — لا يدل على ذكاء أو غباء ، ولقد أدهشنى أن أجد الرجل الذى اعتدت أن أراه غارقاً فى الشناعة والرذيلة ، قادراً على مثل ذلك النقاء وعلى السمو إلى إحساس لا أستطيع بلوغه ، تألق وجه زينايدا فيودورفنا وراحت تذرع الثوى فى انفعال . قال :

— انتظرى قليلا يا عزّابتى . سأعزف لك شيئاً إذا

استطعت أن أذكره . لقد سمعته يعزف على الفيولونسيل .

بدأ على استحياء ، وهو يتصيد النغمات ، حتى إذا ما استجمع الثقة بنفسه ، عزف « أغنية البجعة » لسان سانس . عزفها من أولها إلى آخرها ثم عاد فعزفها من جديد . قال :

— أغنية جميلة . أليس كذلك ؟

وقفت زينايدا فيودورفنا إلى جانبه وقد أثرت فيها الموسيقى ، وسألت :

— حدثني في صراحة الصديق . ماذا تظن بي ؟

قال وهو يرفع حاجبيه :

— ماذا أقول ؟ أنا أحبك ولا أظن بك إلا خيراً — ثم مضى يقول وهو يحك كمه عند المرفق ويعبس — ولكن إذا شئت أن أحدثك عن الموضوع الذى يهمك حديثاً ما ، فاعلمى يا عزيزتى . . . أن اتباع إيحاء القلب دون قيد لا يعود على الأخيار بالسعادة دائماً . يبدو لى أن المرء لا ينبغى أن يخفى عن نفسه — لتكون له الحرية والسعادة معاً — أن الحياة خشنة قاسية لا ترحم فى رجعيتها ، وأن المرء ينبغى أن يقابلها بما هى أهله — أعنى أن يكون عنيفاً قاسياً فى كفاحه لأجل الحرية . هذه هى فكرتى .

قالت زينايدا فيودورفنا ببسمة حزينة :

— هذا فوق طاقتى . أنا مجهدة . أنا مجهدة حتى لأعجز عن رفع أصبع فى سبيل خلاصى .

— ادخلى الدير .

قال ذلك هازلا ، ولكنه ما كاد يقولها حتى لمعت الدموع في عيني زينايدا فيودوفنا ثم في عينيه ، قال :

— حسناً . لقد أطلنا الجلوس ، والآن يجب أن نذهب . وداعاً يا عرّابتي العزيزة . متعك الله بالصحة .

وقبل يديها كلتيهما ، وقال وهو يمسحهما بلطف إنه سيعود ليراها بعد يوم أو يومين . وفي الردهة راح يفتش في جيوبه عن منحة لي ، وهو يرتدي معطفه الذي يشبه دثار الأطفال ؛ ولكنه لم يجد شيئاً .

قال في حزن :

— وداعاً يا صديقي العزيز .

ثم مضى ، ولن أنسى أبداً ذلك الشعور الذي خلفه هذا الرجل وراءه .

ظلت زينايدا فيودورفنا تذرع الغرفة مضطربة ، وكان خيراً لها أن تذرع ولا تبقى مضطجعة . وقد أردت أن أنتهز حالة الاضطراب هذه فأحدثها بصراحة ثم أرحل ، ولكني ما كدت أشيع جروزين حتى سمعت رنين الجرس . كان بالباب كوكوشكين . قال :

— هل جورجي إيفانتش بالمنزل ؟ هل رجع ؟ أتقول لا ؟ يا لله ! في هذه الحالة سأدخل فأقبل يد سيدتك وأمضي .

صاح :

— زينايدا فيودورفنا ، هل لي أن أدخل ؟ أريد أن أقبل يدك . معذرة لزيارتي المتأخرة .

لم يمض عليه فى الثوى وقت طويل — لم يمض عليه أكثر من عشر دقائق — ولكنى أحسست أنه سيطيل البقاء فلا يذهب أبداً ، عضضت شفتى فى غضب وضيق وحقدت على زينايدا فيودورفنا . قلت لنفسى : لم لا تطرده ؟ وكنت ساخطاً وإن كان من الواضح أنها ضيقة بصحبته .

وحين ناولته معطف الفراء سألنى ليدلنى على سودته الخالصة :

— كيف أعيش بغير زوجة .

وقال ضاحكا :

— ولكنى لا أظنك تضيع وقتك . لا شك عندى أنك وبوليا حميان كالصبين . يا وغد !

لم أكن فى ذلك الوقت أعرف كثيراً عن البشر رغم تجربتى فى الحياة ، وأغلب الظن أننى كثيراً ما ضخمت الشئ التافة ، وعجزت عن ملاحظة الشئ الخطير . بدا لى أنَّ لكوكوشكين ما يدفعه إلى تملقى والثرثرة معى . أكان يأمل منى أن أطلق لسانى ، فعل الخادم ، فى المطابخ وغرف الخدم عن مجيئه لزيارتنا فى الأماسى التى يتغيب فيها أورلوف عن المنزل ، وعن بقائه مع زينايدا فيودورفنا إلى وقت متأخر من الليل ؟ فاذا ما انتهت ثرثرتى إلى آذان خلانه ، غض طرفه مرتبكا وأومأ بأصبعه . قلت لنفسى وأنا أنظر إلى وجهه الصغير المعسول : ألا يدعى هذا المساء نفسه وهو يلعب الورق أنه قد استمال زينايدا فيودورفنا وانتزعها من أورلوف ؟

تملكني الآن ذلك الحقد الذى خذلنى فى الظهر حين جاء الأب الشيخ . ذهب كوكوشكين آخر الأمر ، و إذ كنت أسمع صوت حذائه الطويل وهو يحتك بالأرض شعرت باغراء ملح فى أن أقذف وراءه رصاصة أو كلمة سباب غليظة ، ولكنى تمالكت نفسى . وحين كف وقع أقدامه على الدرج ، رجعت إلى الردهة ، وتناولت ، وأنا لا أكاد أعى ما أفعل ، رزمة الأوراق التى خلفها جروزين وراءه ، واندفعت أهبط الدرج ، وجريت فى الشارع دون معطف أو قبعة . لم يكن الجو بارداً و إن تساقط البرد وهبت الريح . صحت وأنا أقارب كوكوشكين :

— يا صاحب السعادة ! يا صاحب السعادة !

فوقف تحت مصباح والتفت فى دهشة .

قلت لاهثاً :

— يا صاحب السعادة ! يا صاحب السعادة !

و إذ لم أجد ما أقوله ، صفعته على وجهه مرتين أو ثلاثاً برزمة الورق . وكنت قد أخذته على غرة ، فسقط فى يده ولم يكد يصدق عينيه ، ومال بظهره إلى المصباح ورفع يديه ليقى وجهه وفى تلك اللحظة مر طبيب عسكرى ورآنى أضرب الرجل ، ولكنه لم يعد أن نظر إلينا دهشاً ومضى .

استحييت ورجعت أعدو إلى المنزل .

١٢

أسرعت إلى غرفتي مبلل الرأس من الجليد وأنا ألقف أنفاسي ، وألقيت سترة الخادم ، وارتديت سترة بحار ومعطفاً وحملت حقيبتي إلى الردهة . ولكنى قبل أن أذهب أسرعت فجلست وبدأت أكتب لأورلوف . قلت :

« أترك لك جوازى الزائف ، وأرجو أن تحتفظ به للذكرى ، أيها الرجل الزائف ، أيها الموظف البطرجي !

« ستقول : سواء عليك أن تسرق أو تدخل إلى بيت رجل آخر باسم مستعار ، وترقب الحياة الداخلية لذلك الرجل من تحت قناع الخادم ، وتستمع إلى كل شيء وترى كل شيء ، حتى يتهمه فيما بعد بالكذب دون أن يطاب إليك ذلك . أجل ، ولكنني لا أبالي الآن بشيء من هذه الأحاسيس اللطيفة لقد تحملت عشرات من وجبات غدائك وعشائك ، قلت فيها ما شئت وفعلت ما شئت ، وكان على أن أسمع وأنظر وألزم الصمت . أنا لا أريد أن أقدم لك صمتي هدية . ثم إذا لم يكن بين الأحياء من يخبرك بالحقيقة دون ملق ، فليغسل لك خادمك ستيفان وجهك البديع . »

لم تعجبني هذه البداية ، ولكنى لم أعن بتغييرها . ثم ما قيمة ذلك ؟

كانت النوافذ الكبيرة بستائرها الداكنة ، والفراش ، والسترة المجعدة الملقاة على الأرض ، وآثار أقدامي المبتلة —

كانت كلها تبدو كئيبة موحشة . وران سكون غريب .

كنت محموماً ولعل ذلك لأنى ركضت فى الشارع دون قبعة أو حذاء طويل . التهب وجهى وآلمتنى رجلاى . . . وانحنى رأسى الثقيل على المائدة ، وتبلبل خاطرى كما يحدث حين يبدو أن كل فكرة فى الذهن يطاردها شبح لها .

مضيت أقول :

« أنا مريض ، ضعيف ، خائر النفس ، لا أستطيع أن أكتب إليك كما كنت أحب أن أكتب . لقد اشتهيت منذ اللحظة الأولى أن أهينك وأذلك ، ولكنى أرى الآن أن ليس ذلك من حقى . لقد سقطنا كلانا ، ولن ينهض واحد منا من جديد ، ولو أن خطابى كان متدفقاً عنيفاً حاراً لبدا مثل الضرب على غطاء تابوت : مهما يضرب المرء عليه فهو لن يوقظ الميت ! لا شىء يستطيع أن يبعث الحرارة فى دمك البارد اللعين ، وأنت تعلم ذلك خيراً منى . لم أكتب ؟ إن ذهنى وقلبى ليحترقان وأنا أمضى فى الكتابة . إن شيئاً ما يدفعنى كأن هناك أملا فى أن ينقذنا كلينا هذا الخطاب . أنا محموم وأفكارى مشوشة ، وقلمى يخز الورق دون معنى . ولكن السؤال الذى أريد أن أوجهه إليك ينهض أمامى كأن أحرفه من نار .

« ليس من العسير أن أشرح لك سبب ضعفى وسقوطى قبل الأوان . لقد وضعت على كتفى ، مثل شمشون القديم ، أبواب غزة لأحملها إلى قمة الجبل ، ولم أتبين إلا حين أدركنى لإجهاد ونضب فى الشباب والصحة ، أن ذلك الحمل لم يكن

لكتفى ، وأنى خدعت فى نفسى ، ثم إنى كنت أتألم ألماً مستمراً قاسياً . لقد احتملت البرد والجوع والمرض والحرمان من الحرية . لم أعرف قط السعادة الشخصية وما زلت جاهلا بها ، ليس لى بيت ، وذكرياتى مريرة كثيراً ما ترهب ضميرى . ولكن لم سقطت أنت — أنت ؟ أى أسباب مميتة شيطانية حالت دون تفتح زهرة حياتك ؟ لم عجلت ، وأنت لم تكد تبدأ حياتك ، بأن تنحى عنك صورة الله ورسمه ، وتغدو ذلك الحيوان الجبان الذى يؤخر غيره ويخيفه لأنه هو نفسه خائف ؟ أنت تخشى الحياة خشية الشرقى الذى يقعد نهاره كله على الحشية يدخن غليونه . نعم أنت تقرأ كثيراً ، والسترة الأوربية تلائمك ، ولكن يا لحرصك الرقيق ، حرصك الشرقى الخالص الذى يشبه حرص الباشا ، على وقاية نفسك من الجوع والبرد والمجهود الجسمى ، وقايتها من الألم الضيق! ما أسرع ما اعتادت نفسك الانطواء فى عباءتها ! يا لجبنك إزاء الحياة الحقة ، والطبيعة الحقة ، اللتين يصارعهما كل رجل صحيح سليم ! يا لنعومتك ورقتك ودفئك وترفك ، ويا لسآمتك أيضاً ! نعم هى السآمة القاتلة ، لا ينفذ إليها شعاع واحد من الضوء كأنها السجن المنفرد ، ولكنك تحاول أن تختبئ أيضاً من ذلك العدو ، فتلعب الورق ثمانى ساعات من أربع وعشرين ساعة .

« وسخريتك ؟ آه ، كم أحسن فهمها ! إن الفكر الحر الشجاع الحى لا يزال يبحث ويتسلط ، ولكن العقل الراكد البطئ لا يطيق الفكر ، ولقد أسرعت فى شبابك مثل كثير

من معاصريك ، فقيدت فكرك وسجنته حتى لا تعكر صفوك .
وإن نظرتك الساخرة إلى الحياة ، أوسمها ما شئت ، هى درعك
وقد أصبح فكرك المقيد المفزّع لا يجرؤ على تجاوز السد المحيط به
وأنت حين تسخر من الآراء التى تدعى المعرفة الكاملة بها ،
مثل الهارب من ميدان القتال يموه خجله بالضحك من الحرب
والشجاعة . إن السوداوية تخنق الألم . لقد داس رجل شيخ
بقدميه فى إحدى قصص دستويفسكى على صورة ابنته المحبوبة ،
لأنه كان قاسياً عليها . وأنت تقذف أفكار الحقيقة والفضيلة
بنكاتك القبيحة السوقية ، لأن القدرة على اتباعها تعوزك .
أنت تخشى كل تلميح مخلص شريف إلى انحلالك . فتعمد إلى
أن تحوط نفسك بأناس همهم تملق ضعفك . أنت محق ، أنت
محق إذ تخشى رؤية الدموع !

« ولنمر أيضاً بنظرتك إلى النساء . إن الإباحة تجرى فى لحمنا
ودمنا ، وعلى الاباحة درجنا . ولكن الرجل إنما كان رجلا
لقهره الحيوان الذى فيه . إنك حين أصبحت رجلا وعرفت
كل الأفكار ، ما كانت رؤية الحقيقة لتفوتك . لقد أدركتها
ولكنك لم تتبعها . لقد خشيتها . وبدأت — كيما تخدع ضميرك —
تعلن مؤكداً لنفسك أن اللوم يقع على المرأة لا عليك ، أن
المرأة سافلة كنظرتك إليها . إن حكاياتك الباردة الفظة ،
وضحكك الغليظ ، ونظرياتك عن الفكرة الكامنة وراء الزواج ،
وعن المطالب غير المحدودة التى تترتب عليه ، وعن عشرة
المليمات التى يدفعها العامل الفرنسى لامرأته ، وحملاتك

الدائمة على منطق المرأة وكذبها وضعفها إلى غير ذلك — ألا يبدو ذلك كله رغبة فى دفع المرأة بأى ثمن إلى الوحل ، حتى تستوى ونظرتك إليها ؟ أنت امرؤ ضعيف ، شقى ، بغيض . »

بدأت زينايدا فيدورفنا تعزف على البيان فى الثوى ، تحاول أن تسترجع أغنية سان سانس التى عزفها جروزين . ولكن ما ذكرت أن قد أزف وقت رحيلى حتى نهضت فى جهد برأس ثقيل مشتعل وذهبت إلى المائدة مرة أخرى . مضيت أكتب :

« ولكن إليك السؤال ، لم أدركنا البلى ؟ لقد بدأنا مفعمين بالحرارة والشجاعة والشرف والإيمان ، فلم أفلسنا إفلاساً تاماً فى الثلاثين أو الخامسة والثلاثين ؟ لم يذوى أحدنا بالسل ، ويصوب الآخر رصاصة إلى رأسه ، ويلتمس الثالث النسيان فى الفودكا والورق ، بينا يحاول الرابع أن يخنق رعبه وشقاءه بأن يدوس بقدميه ناقماً تلك الصورة النقية — صورة شبابه الجميل ؟ لم لا نحاول إذا سقطنا مرة أن ننهض ثانية ، و إذا فقدنا شيئاً أن نبحث عن غيره ؟ لم ذلك ؟

« إن اللص المصلوب ليستطيع أن يستعيد فرح الحياة وشجاعة الأمل الواثق و إن لم يبق له فى الحياة غير ساعة . إن أمامك أعواماً كثيرة ، وربما عشت أنا أكثر مما يظن . فماذا علينا لو استحال الحاضر حلماً أو كابوساً مخيفاً ، ثم نصحو وقد بعثنا أطهاراً أقوياء نفخر باستقامتنا ؟ إن الخيالات الحلوة تحرّقنى ، وأنا أكاد ألهث من الانفعال . إن بى شوقاً عنيفاً إلى الحياة . أنا أتوق إلى أن تكون حياتنا قدسية رفيعة سامية

كالسموات التي فوقنا . لنعش ! إن الشمس لا تشرق مرتين في اليوم ، ولن توهب لنا الحياة مرة ثانية — فتعلق بما بقي من حياتك وأنقذه . . . »

لم أزد كلمة . لقد كان يدور برأسي حشد من الأفكار ولكني لم أستطع أن أربط بينها وأسطرها على الورق . وقعت على الخطاب — دون أن أتمه — باسمي ورتبتي ، وذهبت إلى غرفة المكتب . كانت الغرفة مظلمة فتحسست النضد ووضعت الخطاب فوقه ولا بد أني عثرت في الظلام بالأثاث وأحدثت ضجة . فقد سمعت في الثوى صوتاً مذعوراً ينادى :

— من هناك ؟

في تلك اللحظة دقت الساعة التي على النضد الواحدة دقاً لطيفاً .

١٣

بقيت نصف دقيقة على الأقل أبحث عند الباب في الظلام عن المقبض . ثم فتحته ببطء ودخلت الثوى . كانت زينا يدا فيودورفنا مستلقية على الأريكة ، فنظرت نحوى وقد نهضت على مرفقيها . سرت بجانبها في أناة وقد خانني النطق وهي تتبعني بعينيها . لبثت فترة قصيرة في غرفة المائدة ثم عدت فمررت بها وهي تفحصني بنظرها مرتبكة بل مذعورة . وقفت أخيراً وقلت في جهد :

— إنه لن يعود .

فنهضت على قدميها مسرعة ونظرت إلى دون أن تفهم .
فرددت وقد اشتدَّت خفقان قلبي :

— إنه لن يعود . إنه لن يرجع لأنه لم يغادر بطرسبرج .
إنه فى بيت بكارسكى .

رأيت من شحوبها المفاجئ ومن الطريقة التى وضعت بها يديها على صدرها مذعورة متوسلة — أنها قد فهمتنى وصدقتنى . وفى لحظة واحدة لمح بخاطرها كل ما قد حدث ؛ تأملت ورأت الحقيقة كلها فى وضوح لا يرحم . ولكنها ذكرت فى الوقت عينه أنى خادم ، أنى مخلوق أدنى منها مرتبة . . . ذكرت أن غريباً عابراً ، أشعث الشعر ، محمر الوجه من الحمى — ولعله سكران — يرتدى معطفاً عادياً ، قد تدخل بخشونة فى حياتها الخاصة . فأغضبها ذلك .

قالت لى بصرامة :

— ليس هذا شأنك . اذهب .

فصحت فى حرارة وقد مددت إليها يدى :

— صدقينى . أنا لست خادماً . أنا حر مثلك .

ذكرت لها اسمى ، وأخذت أسرع فى الكلام حتى لا تقاطعنى أو تنصرف عنى ، فكشفت لها عن نفسى وعن سبب إقامتى بالمنزل . صعقها هذا الكشف الجديد أكثر مما صعقت للأول . لقد كانت تأمل فى أن يكون خادمها كاذباً أو مخطئاً أو مغفلا ، ولكن لم يبق لديها الآن شك بعد اعترافى . رأيت من الشقاء المرتسم على عينيها ووجهها الذى فقد نعومته وجماله

فجأة وبدت عليه الشيخوخة ، أنها كانت فى بؤس لا يطاق ، وأن الحديث لا يعود بخير ، ولكنى مضيت أقول متدفقاً :

— لقد اخترعتِ قصة الشيخ والدورة التفتيشية لخديعتك . إنه لم يرحل فى يناير كما لم يرحل الآن . بل نزل لدى بكارسكى وكنت أراه كل يوم وأشارك فى الخديعة . كان قد سئمك وكره إقامتك هنا ، كان يسخر منك . . . لو أنك سمعت سخريته هو وأصدقائه بك وبحبك لما بقيت هنا لحظة واحدة ! ارحلى من هنا ! ارحلى !

قالت بصوت مرتعش وهى تمر يدها على شعرها :

— حسناً ، حسناً ، ليكن .

كانت عيناها مليئتين بالدموع ، وشفتاها ترتعدان ، وقد شحب وجهها كله شحوباً شديداً وشوهه الغضب . أسخطها كذب أورلوف الوضيع وبدا لها حقيراً مضحكا ، وابتسمت ولم ترقنى تلك البسمة .

ردّدت وهى تمر يدها على شعرها ثانية :

— حسناً ، ليكن . إنه يظن أنى سأموت قهراً . ولكنى ... مسرورة . لا حاجة به إلى أن يختبئ .

ثم ابتعدت عن البيان وقالت بهزة من كتفيها :

— لا حاجة إلى ذلك . . . كان الأيسر أن يكاشفنى لا أن يختبئ فى بيوت الناس . إن لى عينين ، لقد رأيت ذلك بنفسى منذ أمد بعيد . لقد كنت أنتظر عودته حتى نصفى كل شئ وننتهى .

ثم جلست على مقعد واطئ بجوار المائدة وبكت بكاء مراً وقد مالت برأسها على ذراع الأريكة . لم يكن فى الثوى غير شمعة واحدة مضيئة فى حامل الشموع ، وكان الكرسى الذى تجلس عليه فى الظلام ، ولكنى رأيت رأسها وكتفيها ترتعد ، وشعرها يتفلت من أمشاطها ويغطى عنقها ووجهها وذراعيها ... كان بكاؤها الهادئ المتصل الذى لا تشنج فيه وإنما هو البكاء العادى لامرأة ، يعبر عن شعور بالاهانة والكبرياء الجريحة والإساءة ، وشئ بائس يائس لا يستطيع المرء أن يصلحه أو يألفه . حركت دموعها صدى فى قلبى الشقى المعنى ، فنسيت مرضى ونسيت كل شئ فى الوجود ، وأخذت أذرع الثوى وتمتمت شارداً :

— أهذه هى الحياة ؟ لا يستطيع المرء أن يستمر فى العيش على هذا النحو — لا يستطيع . إن هذا جنون وشر لا حياة .

قالت بين دموعها :

— يا للمذلة ! أيعيش معى ، ويبسم لى ، فى الوقت الذى يجدنى فيه عبئاً عليه ، ويرانى شيئاً مضحكا أمام عينيه ؟ أوه ، يا للمذلة !

رفعت رأسها وسألتنى ، وهى تنظر إلى بعينين مخضلتين من خلال شعرها الذى بللته الدموع :

— أكانوا يضحكون منى ؟

— لقد كنت مضحكة عند هؤلاء الناس ، أنت وحبك

وترجنيف ، لقد كانوا يقولون إن رأسك ملئ به . ولو متنا معاً من اليأس لأضحكهم ذلك أيضاً ، وجعلوا منه حكاية طريفة يرددونها فى قداسك .

ثم قلت نافد الصبر :

— ولكن لم الحديث عنهم ؟ ينبغى أن نرحل من هنا . أنا لا أستطيع أن أبقى هنا لحظة بعد الآن .

عادت تبكى ، بينا ذهبت أنا إلى البيان وجلست . سألتها وقد ضاق صدرى :

— ماذا تنتظرين ؟ الساعة الثانية .

قالت :

— أنا لا أنتظر شيئاً . أنا مضيعة تماماً .

— لم تتكلمين كذلك ؟ الخير أن نتأمل معاً فيما ينبغى أن نفعل . إننا كلينا لا نستطيع أن نبقى هنا . فالى أين تنوين الذهاب ؟

دق الباب فجأة ، فوقف قلبى . أ يمكن أن يكون أورلوف ، فربما شكانى كوكوشكين إليه ؟ كيف نلتقى ؟ ذهبت أفتح الباب . لقد كانت بوليا . دخلت تنفض الجليد عن دثارها ، وذهبت إلى غرفتها دون أن تفوه بكلمة . وحين رجعت إلى الثوى كانت زينايدا فيودورفنا واقفة فى وسط الغرفة شاحبة كالموت تنظر نحوى بعينين كبيرتين .

سألت بلطف :

— من الطارق ؟

أجبت :

— بوليا .

فمرت بيدها على شعرها وأغمضت عينيها متعبة . قالت :

— سأرحل فوراً . أتتكرم باصطحابى إلى عدوة بطرسبرج ؟ كم الساعة الآن ؟

— الثالثة إلا ربعاً .

١٤

حين خرجنا من المنزل بعد قليل كان الطريق مظلماً مهجوراً ، وكان الجليد المائع يتساقط والريح الباردة تنفح الوجه . أذكر أننا كنا فى بداية مارس وقد بدأ الثلج يذوب ، واستعمل سائقو العربات العجلات منذ أيام . كانت زينايدا فيودوروفنا محطمة خائرة القوى من أثر الدرج الخلفى والبرد وظلام منتصف الليل ، والبواب ذى الفروة الذى استجوبنا قبل أن يفتح لنا البوابة . وحين ركبنا العربة ورفع غطاؤها بدأت تعبر عن شكرها لى وجسمها كله يرتعد .

تمتمت :

— أنا لا أشك فى حسن نيتك ولكن يخجلنى أن أثقل عليك . أوه ، أنا أفهم ، أنا أفهم . . . لقد أحسست حين كان جروزين عندنا اليوم أنه يكذب ويخفى عنى شيئاً . حسناً ، ليكن . ولكنى على أية حال خجلة إذ أثقل عليك .

كانت ما تزال تشك . ولكى أبدد شكوكها سألت السائق

أن يسير في شارع سرجيفسكى ، ثم أوقفته عند باب بكارسكى ونزلت من العربة ودققت الجرس . فلما جاء البواب صحت سائلا لتسمع زينايدا فيدوروفنا :

— هل جورجى إيفانش بالمنزل ؟

كان الجواب :

— نعم ، منذ نصف ساعة ، ولعله الآن في الفراش . ماذا تريد ؟

لم تستطع زينايدا فيدوروفنا إلا أن تبرز رأسها من العربة . سألت :

— هل أقام جورجى إيفانتش هنا منذ زمن طويل ؟

— منذ ثلاثة أسابيع .

— ولم يرحل ؟

فأجاب البواب وهو ينظر إلى دهشاً :

— كلا .

قلت :

— أخبره في صباح الغد أن أخته حضرت من وارسو . وداعاً .

ثم سرنا . ولم يكن للعربة غطاء فكان البرد يسقط علينا نثاراً كبيراً ، والريح — وبخاصة على النيفا — تخترق أجسامنا مرة بعد مرة . خامرنى الإحساس بأننا كنا نسير منذ أمد بعيد ، وأننا لبثنا دهوراً نتعذب ، وأنى أنصت منذ أجيال إلى أنفاس زينايدا فيودوروفنا المرتعدة . أخذت أسترجع فيما يشبه الهذيان — وكأنى وسنان — حياتى الغريبة المضطربة ، وذكرنى ذلك

لأمر ما بمأساة « الشحاذين الباريسيين » التى رأيتها مرة أو مرتين فى طفولتى . وحين أردت أن أنفض عن نفسى ذلك الهذيان فأطللت من العربة ، ورأيت الفجر ، انعقدت خيالات الماضى والأفكار الغائمة فى فكرة واحدة قاهرة : أن قد انتهى أمرى وأمر زينايدا فيودوروفنا دون رجعة . اعتقدت ذلك كأن السماء الزرقاء الباردة كانت تنطوى على نبوءة ، ولكن ما مرت على دقيقة حتى كنت أفكر فى شئ آخر وتبدل اعتقادى .

قالت زينايدا فيودوروفنا بصوت أخشنه البرد والرطوبة :

— ما أنا الآن ؟ أين أذهب ؟ ماذا أعمل ؟ لقد قال لى جروزين ادخلى الدير . وددت لو فعلت . وددت لو غيرت ملابسى ووجهى واسمى وأفكارى . . . كل شئ — كل شئ ، واختفيت إلى الأبد . ولكنهم لن يقبلونى . إنى حامل .

قلت :

— سنذهب معاً إلى الخارج فى غد .

— هذا محال . إن زوجى لن يعطينى جوازاً .

— سآخذك دون جواز .

وقفت السائق عند بيت خشبى ذى طبقتين داكن الطلاء . دَقَقْتُ الجرس . قالت زينايدا وابتسمت لى بسمة شائهة وهى تأخذ منى سلتها الصغيرة الخفيفة وهى كل ما أحضرنا من متاع :

— هذه هى جواهرى .

ولكنها كانت أضعف من أن تحمل تلك الجواهر .

مرت فترة طويلة قبل أن يفتح الباب . ولم بعد الدقة

الثالثة أو الرابعة ضوء فى النوافذ ، وسمع وقع أقدام وسعال وهمس ، وأخيراً صر المفتاح فى القفل وظهرت عند الباب امرأة فلاحة قوية يلوح الذعر على وجهها الأحمر . وقد وقفت غير بعيد منها شيخة صغيرة نحيلة ذات شعر قصير أشهب ، تحمل فى يدها شمعة . ركضت زينايدا فيدوروفنا فى الممر وألقت ذراعيها حول رقبة المرأة العجوز . قالت منتحبة :

— نينا ! لقد خدعت . لقد خدعت بغلظة ودناءة . نينا ! نينا !

ناولت السلة إلى المرأة الفلاحة . وأغلق الباب ولكنى بقيت أسمع بكاءها وصيحتها : « نينا ! »

ركبت ، وأمرت سائق العربة أن يسير ببطء فى طريق نفسكى . كان على أن أفكر لنفسى عن مأوى ليلة .

ذهبت فى اليوم التالى قبيل المساء لأرى زينايدا فيدوروفنا . كانت قد تبدلت تبدلا مروعاً . فليس على وجهها الشاحب الغائر آثار دموع ، وقد اختلفت سيماها . لست أدرى أكان ذلك لأنى كنت أراها فى محيط جديد بعيد عن الترف ، ولأن علاقاتنا قد اختلفت ، أم لأن الحزن العميق قد وسمها بطابعه . لم ترعنى برشاقتها وأناقتها كما كانت تروعنى من قبل . لقد تضاءل جسمها ، وبدا عليها التسرع وثورة الأعصاب ، كأن شيئاً يعجلها ، ولم يعد لطفها القديم يلوح حتى فى ابتسامتها . كنت أرتدى حلة ثمينة اشتريتها أثناء النهار . فنظرت أول ما نظرت إلى تلك الحلة وإلى القبعة فى يدى ،

ثم ألقت على وجهى نظرة فاحصة عجلة كأنها تدرسه . قالت :

— إن تحولك ما زال يبدو لى أشبه بمعجزة . أغفر لى تحديقى إليك بمثل هذا التطلع . أنت تعلم أنك رجل خارق .

كشفت لها مرة أخرى عن شخصى ، وعن سبب إقامتى فى منزل أورلوف ، وأفضت فى الحديث عما قلته فى اليوم السابق أصغت بانتباه شديد وقالت دون أن تدعنى أتم :

— كل شىء هناك قد انتهى عندى . أنت تعلم أنى لم أستطع أن أصرف نفسى عن كتابة خطاب . إليك الجواب .

قرأت فى الورقة التى قدمتها إلى بخط أورلوف :

« لن أبرئ نفسى . ولكن يجب أن تعترفى بأنك أنت المخطئة ، لا أنا . أتمنى لك السعادة وأضرع إليك أن تسرعى بالنسيان .

« المخلص

ج . ا »

« حاشية : أرسل مع هذا أشياءك . »

كانت الحقائب والسلال التى بعث بها أورلوف قائمة فى الممر و إلى جانبها حقيبتى الصغيرة الحقيرة . بدأت زينايدا فيدوروفنا تقول :

— إذن . . .

ولم تتم ، وران علينا الصمت . ثم تناولت الورقة وجعلتها

أمام عينيها برهة وقد بدا على وجهها من الترفع والاحتقار والكبرياء والخشونة ما كان يبدو عليه أمس عندما أخذنا نتفاهم . واندفعت إلى عينيها الدموع — دموع ليس فيها ضعف ولا مرارة ، بل كبرياء وغضب . قالت وقد نهضت بغتة ومشت إلى النافذة كى لا أرى وجهها :

— اسمع . لقد عزمت على أن أصحبك غداً إلى الخارج .

— أنا سعيد جداً . أنا مستعد للرحيل اليوم .

— اقبلنى مجندة .

وسألت بغتة وهى تلتفت إلى :

— أقرأت بلزاك ؟ أقرأته ؟ إن البطل فى نهاية قصته « الأب جوريو » ينظر إلى باريس من قمة تل ويتوعد المدينة بقوله : الآن نصفى حسابنا . ثم يبدأ بعد ذلك حياة جديدة . وكذلك أنا حين أنظر من نافذة القطار إلى بطرسبرج للمرة الأخيرة سأقول : الآن نصفى حسابنا .

قالت ذلك وابتسمت لفكاهتها ، ولأمر ما ارتعد جسمها كله .

١٥

انتابتنى فى البندقية نوبة من التهاب الغشاء الرئوى ، ولعلى بردت فى المساء حين ركبنا الزورق من المحطة إلى فندق باور . فاضطررت إلى ملازمة الفراش أسبوعين . كانت زينايدا أثناء مرضى تأتينى كل صباح من غرفتها لتشرب القهوة معى ، ثم تقرأ لى كتباً فرنسية وروسية اشترينا عدداً منها من فينا .

كانت تلك الكتب إما مألوفة لدى منذ عهد بعيد أو ممجوجة لا تلذنى . ولكنى كنت أسمع إلى جانبى صوتاً حنوناً فكانت خلاصة هذه الكتب كلها شيئاً واحداً : أنى لست وحيداً .
كانت تخرج أحياناً لتتمشى ، وتعود فى ثوبها الرمادى الرقيق وقبعتها الخفيفة المصنوعة من القش ، وهى مرحة قد أدفأتها شمس الربيع ، وتحدثنى ، وقد جلست على سريرى وانحنت على ، بشىء عن البندقية ، أو تقرأ لى تلك الكتب — وكنت سعيداً .

كنت أخشى البرد والمرض والكآبة فى الليل ، ولكنى فى النهار كنت أطير فرحاً بالحياة — ولست أجد عن ذلك تعبيراً خيراً من هذا . فعلت بى الأعاجيب أشعة الشمس الدافئة تدخل من النوافذ المفتوحة ومن باب الشرفة ،والصيحات فى أسفل ، وصفق المجاديف ، ورنين الأجراس ، وصوت المدفع فى الظهر ، والشعور بالحرية التامة الكاملة . أحسست كأنما نبت لى جناحان قويان عريضان يحملاننى إلى حيث يعلم الله .
كم كان يفتننى ويطربنى التفكير فى أن حياة جديدة قد أصبحت جد قريبة منى ! أنى الخادم والوصى والصديق ورفيق الرحلة الحميم لكائن شاب جميل ثرى ولكنه ضعيف وحيد مهان ! ربما كان فى الأرض لذة إذا علمت أن بعض الناس يترقب إبلالك كما يترقب العيد . سمعتها يوماً تهمس وراء الباب مع طبيبى ثم جاءت إلى بعينين تجرى فيهما الدموع . كان ذلك بادرة سوء ولكنى تأثرت له ، وهفا قلبى .

ولكنهم سمحوا لى أخيراً بأن أخرج إلى الشرفة . كان صحوة الشمس ونسيم البحر يلاطفان جسمى العليل و يهدهدانه . كنت أنظر إلى الجندولات المألوفة تجرى على الماء فى بهاء أنثوى وديعة رفيعة كأنها تنبض بالحياة . وشعرت بترف تلك الحضارة وأصالتها وسحرها . كانت تشيع فى الجو ريح البحر ، وسمع صوت آلة وترية يصاحبه غناء اثنين . يا للروعة ! لشد ما يختلف ذلك عن الليلة البطرجية التى كان فيها الجليد المائع ينفح وجوهنا بشدة ! و إذا نظر المرء عبر القناة رأى البحر ، وقد انداح إلى الأفق وسطعت الشمس على المياه سطوعاً يؤذى العين أن تنظر إليه . كانت نفسى تنازعنى إلى ذلك البحر الجميل القريب الذى وهبته شبابى . كنت أتوق إلى الحياة — إلى الحياة ، ولا أريد بعدها شيئاً .

بعد أسبوعين بدأت أمشى كما أهوى ، كنت أحبّ أن أجلس فى الشمس وأنصت إلى النوتية دون أن أفهم عنهم ، وأرنو الساعات الطويلة إلى البيت الصغير الذى يزعمون أن ديدمونة كانت تسكنه ، وهو بيت ساذج صغير كئيب رزين ، رقيق كالوشى ، خفيف حتى ليبدو للمرء أنه يستطيع أن يرفعه من مكانه بيد واحدة . ووقفت طويلا أمام ضريح كانوفا ، لا أقوى على تحويل طرفى عن الأسد الحزين . وفى قصر الدوج كان شئ يجذبنى دائماً صوب الركن الذى صور فيه باللون الأسود رسم مارينو فاليرو التعس . فكرت : جميل أن يكون المرء رساماً أو شاعراً أو كاتباً مسرحياً . ليتنى إذ حرمت ذلك

أسعى وراء التصوف . ليت لى ذرة من إيمان أزيدها إلى ما يملأ النفس من سكون وجلال .

وفى المساء كنا نأكل المحار ونشرب النبيذ ، ونخرج فى جندول . أذكر أن جندولنا الأسود كان يترجح بلطف ولا يبرح مكانه والماء يقرقر تحته ، وصور النجوم وأضواء الشاطئ تنعكس على الماء هنا وهناك مرتعشة خفاقة . وغير بعيد منا جندول علقت به مصابيح ملونة تنعكس على الماء ، وفيه أناس يغنون . كانت تسمع فى الظلام أصوات القيثارة والكمان والماندولين وأصوات الرجال والنساء . وكانت زينايدا فيدوروفنا جالسة إلى جانبي شاحبة ، يبدو على وجهها الجد بل الصرامة ، وهى تزم شفتيها وتعصر يديها . كانت تفكر فى شئ ما ، ولا تطرف أو تسمعنى . يالمتناقضات الحياة ! هى بوجهها وسيماها ونظرتها الثابتة الخالية من التعبير وذكرياتها التعسة المخيفة الباردة ، وحولها الجندولات والأضواء والموسيقى والأغنية المرحة تصحبها الصيحة الحارة : جامو . جامو . كنت أحس حين تجلس كذلك عاقدة يديها جامدة حزينة ، أننا بطلان فى قصة من القصص العتيقة الأسلوب اسمها « المنكوبون » أو « المنبوذون » أو شئ قريب من هذا . هى المنكوبة المنبوذة ، وأنا الصديق الحميم المخلص الحالم ، و إذا شئت فالرجل التافه الفاشل ، الذى لا يقوى إلا على السعال والحلم ، وقد يستطيع أن يضحى بنفسه . . . ولكن من ذا الذى يرغب فى تضحياتى الآن ؟ الحق ، ماذا عندى أضحى به ؟

كنا حين نعود فى المساء نشرب الشاى دائماً فى غرفتها ونتحدث . لم نكن ننكص عن لمس الجراح القديمة الحية ، بل لقد كنت لأمر ما أجد لذة حقيقية فى أن أحدثها عن حياتى فى منزل أورلوف أو أصرح بذكر علاقات كنت أعرفها ولم يكن إخفاؤها عنى ممكناً . قلت لها :

— كنت أمقتك أحياناً . وأعجب حين يستولى عليه النزق ، أو يتكلف اللطف ، أو يحدثك بالأكاذيب ، كيف لا ترين ولا تفهمين والأمر كله واضح . لقد كنت تقبلين يديه ، وتركعين له ، وتتملقينه . . .

— حين كنت . . . أقبل يديه وأركع له ، كنت أحبه . . .

مضيت أقول وأنا أحس أن ليس لى الرفق والحذق والوداعة التى يحتاجها المرء حين يقارب نفس غيره — ولم أكن أدرك ذلك النقص فى نفسى قديماً قبل أن أعرفها :

— أيمكن أن يكون فهمه على حقيقته صعباً ؟ يا لأبى الهول اللطيف ! أبو الهول حقاً . . . فتى صالون . . .

ثم قلت وقد زاد تلطفى وتهيبى معاً :

— معاذ الله أن ألومك على شئ . ولكن كيف فاتك أن تعرفى من هو ؟

قالت وقد غلبها التأثر :

— إذا كنت تعنى أنك تحتقر ماضى فأنت محق . إنك تنتمى إلى طبقة خاصة من الناس لا يحكم عليها بالمقاييس العادية

فأخلاقيتك قوية وأنا أفهم أن النسيان لا يدخل فى طوقك . أنا أفهمك ، و إذا ناقضتك فى شئ فليس معنى ذلك أنى أخالفك فى نظرى إلى الأشياء . إن الهراء القديم يرين على حديثى لأنى لم أجد بعد من الوقت ما أبلى فيه ثيابى القديمة وأوهامى القديمة . أنا أيضاً أبغض ماضى وأحتقره كما أبغض أورلوف وحبى . . . ما ذلك الحب ؟

ثم قالت وهى تذهب إلى النافذة وتنظر إلى القناة :

— إنه يبدو الآن سخيفاً ، إن هذا الحب كله لا يعدو أن يغشى الضمير و يربك العقل . إن معنى الحياة لا يوجد إلا فى شئ واحد ، هو القتال : أن يدوس المرء بكعبه على رأس الحية الشرير ويسحقه ! هذا هو معنى الحياة . إن كان للحياة معنى فهو فى هذا و إلا فلا .

قصصت عليها قصصاً طويلة عن ماضى . وحدثتها بمغامراتى ، وكانت مغامرات مدهشة حقاً . ولكنى لم أحدثها بكلمة عن التبدل الذى طرأ على . كانت تصغى إلى دائماً بانتباه شديد ، وتفرك يديها فى المواضع الشائقة من الحديث كأنما يحنقها أن لم يكن من حظها تجربة تلك المغامرات والأفراح والمخاوف . ثم تغرق بغتة فى التأمل وتنطوى على نفسها ، فأرى من وجهها أنها لاتصغى إلى .

أغلقتُ النوافذ المطلة على القناة وسألت :

— ألا نشعل النار؟

قالت بابتسامة فاترة :

— كلا . لا بأس . أنا لا أحس البرد ، وليس بى سوى

الضعف . أتعلم أنى أظننى أصبحت حكيمة جداً فى الأيام الأخيرة ؟ إن لى الآن أفكاراً أصيلة خارقة . حين أفكر فى ماضى وفى حياتى إذ ذاك وفى الناس . . . عامة ، يتلخص لى الأمر كله فى صورة زوج أبى : خشونة ووقاحة وقسوة وزيف وضعة و إدمان مخدرات أيضاً . لقد تزوج أبى من أمى لمالها ، وكان أبى هزيلا ضعيف الارادة ، وقد دفع بها إلى السل ؛ ولكنه أحب زوجته الثانية — زوج أبى — بحرارة وجنون . كم كان على أن أتحمل ! ولكن ما فائدة الكلام ؟ وكذلك يتلخص كل شئ فى صورتها كما قلت . . . ما أشد غيظى لأن زوج أبى قد ماتت ! وددت لو لقيتها الآن !

— لِمَ ؟

قالت ضاحكة وحركت رأسها حركة لطيفة :

— لست أدرى . طابت ليلتك . ينبغى أن يصح جسمك فنستأنف عملنا حال شفائك . . . قد أزف وقت العمل .

قالت بعد أن رددتُ التحية ووضعت يدى على مقبض الباب :

— ما رأيك ؟ أما تزال بوليا مقيمة هناك ؟

— ربما .

وذهبت إلى غرفتى . وكذلك قضينا شهراً كاملا .

وفى صباح غائم رانت علينا الكآبة فجأة ونحن واقفان إلى جانب نافذتى ، ننظر إلى السحب الآتية من البحر ، و إلى القناة يخيم عليها الظلام ، ونتوقع كل لحظة أن تفيض بماء المطر ،

وننظر إلى البحر من وراء خيوط المطر الغليظة كأنها حجاب شفاف . فى ذلك اليوم رحلنا إلى فلورنسا .

١٦

كان الخريف فى نيس . دخلت غرفتها صباح يوم فوجدتها جالسة على كرسى واطئ ، منحنية على نفسها ، متكورة ، معقودة الساقين ، قد أخفت وجهها فى يديها . كانت تبكى بكاء مراً وتنتحب وقد سقط شعرها الطويل غير المرجل على ركبتيها . فغادرنى ما انطبع فى نفسى من روعة البحر وجماله ، وكنت قد أحسست ذلك منذ قليل وجئت لأحدثها به . انصدع قلبى ، وسألت :

— ما بك ؟

فرفعت عن وجهها إحدى يديها وأشارت إلى بالخروج . فرددت :

— ما بك ؟

وقبلت يدها للمرة الأولى منذ تعارفنا . قالت بسرعة :

— كلا . لا شئ . لا شئ . آه ، لا شئ ، لا شئ . اذهب . أنت ترى أنى غير مرتدية ثيابى .

خرجت مشدوهاً . وقد سمم الاشفاق ما غلب على من سكون وهدوء . غالبنى الشوق إلى أن أرتمى عند قدميها ، وأتوسل إليها ألا تبكى وحيدة ، بل تشاطرنى حزنها ، وأنهى همس البحر إلى أذنى نبوءة كئيبة ، ولاحت لى دموع جديدة ،

ومصاعب جديدة ، وخسائر جديدة فى المستقبل . ساءلت نفسى وأنا أستعيد صورة وجهها ونظرتها المعذبة : ماذا يبكينا ؟ ماذا ؟ وذكرت أنها حامل ، وقد حاولت أن تخفى حملها عن غيرها من الناس وعن نفسها أيضاً . كانت تسير فى البيت فى ثوب فضفاض أو دثار على صدره ثنايا كثيرة ، وحين كانت تخرج إلى مكان ما كانت تحبك ثيابها حتى لقد أغمى عليها مرتين ونحن فى الخارج . لم تحدثنى قط عن حالها ، وحين كنت ألح لها بزيارة الطبيب ، كان وجهها يحمر خجلا ولا تنطق بكلمة .

حين ذهبت أراها ثانية كانت قد ارتدت ملابسها ورجلت شعرها . قلت وقد لاح لى أنها توشك أن تعود إلى البكاء :

— كفى ، كفى . خير لنا أن نذهب إلى البحر ونتحدث .

— أنا لا أستطيع الكلام . معذرة فأنا فى حال تحبب إلى الوحدة . ثم أرجو منك يا فلاديمير إيفانتش حين تريد دخول غرفتى مرة أخرى أن تتكرم فتدق الباب .

كان فى قولها « تتكرم » نبرة خاصة لا تمت إلى النساء . ذهبت ، وعادتنى نوبة بطرسبرج ، وسحق الحر أحلامى وأذواها كأوراق الشجر . أحسست من جديد بأنى وحيد ، وأن لا قرب بيننا . لم أزد عندها على أن أكون نسيج عنكبوت على نخلة تعلق بها عفواً لتمزقه الريح وتذهب به . سرت فى الميدان حيث كانت الجوقة تعزف ، وذهبت إلى الملهى ، وهناك نظرت إلى نساء أسرفن فى ثيابهن وعطورهن ، وكانت كل واحدة منهن تلمحنى وكأنها تقول : أنت وحيد ، لا بأس . ثم خرجت إلى

الشرفة ورنوت إلى البحر مدة طويلة . لم يكن على الأفق شراع واحد ، وعلى الضفة اليسرى وسط الضباب الوردى كانت هناك جبال وحدائق وأبراج وبيوت ، وكانت الشمس تتألق عليها ولكنها كانت جميعاً حشداً غريباً تافهاً لا معنى له .

١٧

كانت كعادتها من قبل تأتى إلى غرفتى فى الصباح لنشرب القهوة ، ولكنا لم نعد نتناول الغداء معاً ، إذ كانت تقول إنها لا تشعر بالجوع ، فكانت تعيش على القهوة والشاى وأشياء تافهة أخرى كالبرتقال وقطع الحلوى .

ولم نعد نتحدث فى المساء . ولست أدرى للأمر سبباً . فمنذ اليوم الذى رأيتها فيه تبكى ، أصبحت تعاملنى بشىء من الإغضاء ، وأحياناً بشىء من التهاون بل السخرية ، وتدعونى لأمر ما « يا سيدى الكريم » . لم يعد يمسها ويثير حماسها وحسدها ما كان يبدو لها من قبل مخيفاً رائعاً صادراً عن بطولة . أصبحت بعد أن تصغى إلى تتمطى عادة وتقول :

— أجل ، لقد حفلت الأيام السالفة بالأعمال العظيمة يا سيدى الكريم .

كان يحدث أحياناً أن تمر الأيام ولا أراها . كنت أقرع بابها مستحيياً متأثماً فلا أحظى بجواب ، وأعيد الدق — ولا شىء سوى الصمت . . . وأقف إلى الباب وأنصت ، فتمر بى الخادم وتقول ببرود : « لقد خرجت السيدة » فأجوس خلال ردهات

الفندق أمشي وأمشي . . . إنجليز ، وسيدات نواهد ، وندل ذوو سترات مذيلة . . . وحين أحدق فى البساط المخطط الذى يمتد على مدى الدهليز ، يلمح فى خاطرى أنى أؤدى فى حياة تلك المرأة دوراً غريباً ، قد يكون زائفاً ولـكنى لا أقوى على تغييره . فأجرى إلى غرفتى وأسقط على سريرى وأفـكر ولا أستطيع أن أصل إلى نتيجة . وكل ما يتضح لى هو أنى أريد أن أعيش ، وأن ذهاب جمالها و برودة وجهها وقسوته إنما تزيد قربها منى ، وتشعرنى بقرابتنا شعوراً قوياً مؤلماً . لابأس « بيا سيدى الـكريم » ، لا بأس بما فى نبرتك من إهمال ، لابأس بما شئت ، ولـكن لا تتركينى يا حبيبتى . أنا أخشى الوحدة .

ثم أخرج إلى الدهليز مرة أخرى وأنصت مرتعداً . . . ولا أصيب عشاء ، ولا ألحظ اقتراب المساء . وأخيراً أسمع الوقع المألوف والساعة حول الحادية عشرة ؛ وعند المنعطف القريب من الدرج تظهر زينايدا فيدوروفنا ، وقد تسألنى وهى تمر بى :

— أأنت تتمشى؟ كان خيراً لك أن تخرج فى الهواء الطلق . . . طابت ليلتك .

— ولـكن ألا نلتقى اليوم ثانية ؟

— أظن الليل قد تقدم . ولـكن لك ما تحب .

فأسأل وقد تبعتها إلى غرفتها :

— حدثينى أين كنت .

فتخرج من جيبها عشر قطع ذهبية وتقول :

— أين ؟ فى مونت كارلو . أنظر يا سيدى الكريم ! لقد ربحت . لقد ربحت ذلك من الروليت .

— هراء ! كأنك تقامرين !

— ولم لا ؟ سأذهب غداً مرة أخرى .

تصورتها بوجهها العليل الكئيب وحالتها وثيابها المحبكة ، وهى واقفة إلى مائدة القمار وسط جمع من الغوانى والعجائز الخرفات ، احتشدن حول الذهب كما يحتشد الذباب على العسل . وبدا لى أنها ذهبت إلى مونت كارلو لسبب تخفيه عنى . قلت لها يوماً :

— أنا لا أصدقك . لا يمكن أن تذهبى إلى هناك .

— لا تكدر نفسك . أنا لا أستطيع أن أخسر كثيراً .

قلت فى ضيق :

— ليس الأمر ما تخسرين . ألم يخطر لك قط وأنت تقامرين أن ما هناك من بريق الذهب والنساء الشواب والعجائز وكل مايحيط بك ، إن هو إلا سخرية شريرة كريهة من عمل الكادحين ومن عرقهم الدامى ؟

سألتْ :

— إذا لم يلعب المرء فما عسى أن يعمل هنا ؟ تستطيع أن تؤجل إلى وقت آخر كل هذه الخطابة عن عمل الكادحين وعرقهم الدامى . ولكن الآن مادمت قد بدأت فدعنى أتم . دعنى أسألك دون مواربة ماذا أعمل هنا ؟ وماذا على أن أعمل؟

قلت وهززت كتفى :

— ماذا عليك أن تعملى ؟ هذا سؤال لا يجاب عليه بداهة .

قالت وقد بدا على وجهها الغضب :

— أرجو أن تجيبنى مخلصاً يا فلاديمير إيفانتش . ما دمت قدْ سألتك هذا السؤال فأنا لا أريد عليه إجابة محفوظة .

ومضت تقول وهى تضرب بيدها على المائدة كأنها تقيس الزمن :

— أسألك ماذا على أن أعمل هنا ؟ ليس فى نيس وحدها بل على الاطلاق .

لم أتكلم بل نظرت من النافذة إلى البحر ، وكان قلبى يدق دقاً مخيفاً . قالت بلطف وهى تلقف أنفاسها ، فقد كان من العسير عليها أن تتكلم :

— فلاديمير إيفانتش ! فلاديمير إيفانتش ! إذا كنت لا تؤمن بمبدئك ، ولا تفكر فى العودة إليه ، فلم خرجت بى من بطرسبرج ؟ لم عللتنى بالوعود ، وأيقظت فى نفسى الآمال المجنونة ؟ لقد تغيرت معتقداتك ، لقد أصبحت رجلا غير الذى كنته ، ولا أحد يلومك لذلك ، فليس أمر معتقداتنا بأيدينا دائماً ولكن . . . لكن لماذا بالله لا تكون مخلصاً يا فلاديمير إيفانتش ؟ ومضت تقول بلطف وهى تقترب منى : لم كتمت عنى الحقيقة هذه الأشهر الطويلة التى كنت أجاهر فيها بأحلامى وأهذى وأنتشى بخططى ، وأعيد تشكيل حياتى ؟ لم كنت تصمت أو تشجعنى بأقاصيصك ، وتسلك مسلك من يعطف على العطف كله ؟ لم كان ذلك ؟ ما الحاجة إليه ؟

قلت وقد التفت وإن لم أنظر إليها :

— من العسير أن يعلن المرء إفلاسه . أجل . إنى لم أعد أومن بشئ . لقد بليت . لقد خاننى قلبى . . . عسير أن يصدق المرء ، عسير جداً ، ولذلك عقلت لسانى . لا قدر الله على أحد أن يعانى ماعانيت !

أحسست أنى أكاد أبكى ، فسكتّ .

قالت وأمسكتنى بكلتا يديها :

— فلاديمير إيفانتش ! لقد عانيتَ فى الحياة كثيراً ، ورأيت منها كثيراً . أنت تعلم أكثر مما أعلم . فاشحذ فكرك وخبرنى ماذا يمكن أن أعمل . علمنى ! إذا لم تكن لك القوة التى تدفعك إلى الأمام وتدفع غيرك معك ، فبين لى على الأقل أين أذهب . أنا برغم كل شئ كائن حى حساس مفكر، يؤلمنى أن يستغرقنى وضع زائف ، وأن أؤدى دوراً سخيفاً . . . أنا لا آخذ عليك شيئاً ، ولا ألومك ، وإنما أسألك .

أحضر الشاى . وقالت زينايدا وهى تناولنى كوباً :

— حسناً . ماذا تقول لى ؟

أجبت :

— إن فى الحياة من الضوء أكثر مما ترين من خلال نافذتك . وهناك أناس غيرى يا زينايدا فيدوروفنا .

قالت فى اهتمام :

— إذن دلنى عليهم . هذا كل ما أسألك إياه .

فمضيت أقول :

— وأريد أن أقول أيضاً ، إن المرء يستطيع أن يخدم الفكرة بأكثر من عمل . فاذا أخطأ المرء وفقد الايمان بعمل ما إستطاع أن يجد غيره . إن عالم الأفكار كبير لا يمكن استنفاده

قالت وهى تنظر فى وجهى متهكمة :

— عالم الأفكار! خير لنا أن نكف عن الحديث . ما الفائدة ؟

واحمر وجهها ، ورددت :

— عالم الأفكار ! وألقت فوطتها وارتسم على وجهها تعبير من الاشمئزاز والاحتقار : أرى أن أفكارك المملة كلها تؤدى إلى خطوة جوهرية محتومة : أن أصبح خليلتك . هذا مايراد . إن اعتناق المرأة الأفكار دون أن تصبح خليلة لرجل شريف تقدمى يستوى وجهل تلك الأفكار . ينبغى البدء بهذا . . . أى أن أصبح خليلتك ، وسيأتى الباقى من تلقاء نفسه .

قلت :

— أنت مضطربة يا زينايدا فيدوروفنا .

صاحت وقد ازدحمت الأنفاس فى صدرها :

— كلا . أنا مخلصة فيما أقول . أنا مخلصة فيما أقول .

— ربما كنت مخلصة فيما تقولين ، ولكنك مخطئة ، والاستماع إليك يؤذينى .

ضحكت :

— أأنا مخطئة ؟ إذا صح أن يقول ذلك واحد من الناس فلست به يا سيدى العزيز . قد أبدو لك خشنة قاسية ولكنى لا أبالى بذلك . أنت تحبنى . أليس كذلك ؟

هزت كتفى ، فمضت تقول متهكمة :

— أجل ، هز كتفيك . لقد سمعتك تهذى وأنت مريض . ورأيت من ذلك الحين العيون العابدة والزفرات ، والأحاديث المشجعة عن الصداقة والقرابة الروحية . . . ولكن المسألة هى : لم لم تكن مخلصاً ؟ لم أخفيت ماعندك وأظهرت مالا تضمر ؟ لو أنك صرحت منذ البداية بالأفكار التى جعلتك تأتى بى من بطرسبرج ، إذن لعلمت . إذن لقتلت نفسى بالسم كما كنت عازمة أن أفعل ، ولما كان شئ من هذه المهزلة المملة . . . ولكن مافائدة الكلام ؟

وجلست وهى تلوح بيدها . قلت وقد أحسست بالاهانة :

— أنت تكلمينى كأنك ترمينى بسوء القصد .

— أوه ، حسناً . مافائدة الكلام ؟ أنا لا أرميك بأن لك مقصداً بل بأن لا مقصد لك . فلو كان لك منه شئ لعرفته الآن . لم يكن لديك غير الأفكار والحب ، أما الآن فلديك الأفكار والحب ، ولديك للمستقبل أن أصبح خليلتك . كذلك تجرى الأمور فى القصص والأفكار على السواء . ثم قالت وهى تضرب المنضدة بيدها : لقد سببته لهذا ولكن المرء لا يستطيع إلا أن يوافقه . إن له ما يبرر احتقاره لهذه الأفكار .

صمت .

— إنه لا يحتقر الأفكار بل يخشاها . إنه جبان كذاب .

— أوه ، ليكن . إنه جبان كذاب ، وقد خدعنى . . وأنت ؟ — واغفر لى صراحتى — ما أنت ؟ لقد خدعنى هو

وتركنى أنتظر حظى فى بطرسبرج ، وخدعتنى أنت وتركتنى هنا . وهو لم يخلط خدعته بالأفكار، أما أنت . . .

صحت فى رعب وأنا أضرب كفاً بكف وأسرع نحوها :

— لم تقولين هذا بالله ؟ كلا يا زينايدا فيدوروفنا ، هذه سوداوية منك . ومضيت أقول وقد تعلقت بفكرة لحت فى خاطرى وبدا لى أن قد يكون فيها الخلاص لنا معاً : لا ينبغى أن تستسلمى لليأس . أنصتى إلى . اسمعى . لقد مررت فى زمانى بتجارب كثيرة حتى ليدير رأسى التفكير فيها . وقد تحققت بعقلى ونفسى المعذبة أن الانسان لا يجد غايته الحقيقية إلا فى أن يحب جاره حباً متفانياً . فى سبيل هذا يجب أن نناضل ، وهذا هو هدفنا ! هذا هو إيمانى !

أردت أن أمضى فأتكلم عن الرحمة والمغفرة ، ولكن كان فى صوتى نبرة لا تنم عن الصدق فارتبكت . قلت مخاصاً :

— أريد أن أعيش ! أعيش ! أعيش ! أريد الهدوء والسكينة ، أريد الدفء ، أريد هذا البحر ، أريد أن تكونى بجانبى . آه كم أود أن أوقظ فيك مثل هذا الظمأ إلى الحياة ! لقد تحدثت الآن عن الحب ، ولكن حسبى أن تكونى قريبة منى ، وأن أسمع صوتك ، وأرى تعبير وجهك . . .

احمر وجهها وأسرعت تقول حتى تقطع كلامى :

— أنت تحب الحياة وأنا أمقتها . وكذلك ترى أن طرقنا متباينة .

صبت لنفسها بعض الشاى ، ولكنها لم تمسسه ،

وذهبت إلى غرفة النـوم ورقدت . وقالت لى من الداخل :

— أظن من الخير أن تقطع هذا الحديث . لقد انتهى عندى كل شئ ، وأنا لا أريد شيئاً . أبعد ذلك شئ يقال ؟

— كلا . لم ينته كل شئ .

— آه ، حسناً ، أنا أعلم . . . لقد مللت . . . كفى .

نهضت وأخذت أذرع الغرفة ثم خرجت إلى الدهليز . وحين تقدم الليل ذهبت إلى بابها وأنصت . فسمعت صوت بكائها واضحاً .

وفى الصباح أخبرنى الخادم مبتسما وهو يناولنى أشيائى أن السيدة فى رقم ثلاثة عشر تعانى المخاض . فارتديت ملابسى كيفما اتفق وأسرعت إلى زينايدا فيدوروفنا يكاد يغشى على من الرعب . وفى غرفتها وجدت طبيباً وقابلة وسيدة متقدمة السن من خاركوف اسمها داريا ميخايلوفنا . كان الجو ينفح بالأثير ، ولم أكد أتخطى العتبة حتى سمعت من الغرفة التى كانت ترقد فيها أنة خافتة شاكية ، فمرت بخاطرى فكرة كأنما حملتها الريح إلى من روسيا . فكرت فى أورلوف وسخريته وفى بوليا ، وفى الجليد النافح ، ثم فى المركبة المكشوفة ، والنبوءة التى قرأتها فى سماء الصباح الباردة ، وفى الصيحة اليائسة : نينا . نينا .

قالت السيدة :

— ادخل إليها .

دخلت لأرى زينايدا فيدوروفنا ، وأنا أحس كأنى والد

الطفل . كانت راقدة مغمضة العينين يبدو عليها النحول والشحوب ، وعلى رأسها قلنسوة بيضاء موشاة الحاشية .أذكر قد كان يرتسم على وجهها تعبيران : أحدهما بارد جامد غير أنه ، والثانى نظرة طفولة بائسة تضفيها عليها القلنسوة البيضاء . لم تسمعنى حين دخلت أو لعلها سمعت ولكن لم تلق بالا إلى ذلك . جلست ونظرت إليها وانتظرت .

ولكن وجهها كان متقلصاً من الألم . فتحت عينيها وحدقت فى السقف كأنها تعجب مما يحدث لها . . . كان الازدراء مرتسما على وجهها . همست :

— فظيع .

فنطقت اسمها بلطف :

— زينايدا فيدوروفنا .

فنظرت إلى نظرة فاترة غير آبهة وأغمضت عينيها . . . ووقفتُ هناك برهة قصيرة ثم انصرفت .

وفى الليل أخبرتنى داريا ميخايلوفنا بأن الطفل ، وهو أنثى ، قد ولد ، ولكن الأم فى حالة خطيرة . ثم سمعت فى الردهة ضوضاء وجلبة ، وجاءت إلى داريا ميخايلوفنا مرة أخرى وقد بدا على وجهها اليأس ، وقالت وهى تضرب كفاً بكف :

— أوه ، هذا فظيع . إن الطبيب يرتاب فى أنها تجرعت سما . آه ! كم يسىء الروس فى سلوكهم هنا !

وفى الساعة الثانية عشرة من اليوم التالى ماتت زينايدا فيدوروفنا .

١٨

مضى عامان ، وتبدلت الظروف ، فرجعت إلى بطرسبرج واستطعت أن أعيش بها دون استخفاء . لم أعد أخشى أن أكون عاطفياً أو أن أبدو كذلك ، واستولى على شعور الأبوة أو العبادة نحو سونيا ابنة زينايدا . كنت أطعمها بيدى ، وأحِمّها ، وأنيمها ، ولا أحول عينى عنها ليالى كاملة ، وأصيح إذا بدا لى أن المربية تكاد تسقطها . واشتد ظمئى إلى الحياة العادية واحتد على الأيام ، ولكن خيالاتى البعيدة كانت تنتهى عند سونيا ، كأنى قد وجدت فيها أخيراً كل ما كنت أحتاج إليه . أحببت الطفلة بجنون ، ورأيت فيها امتداداً لحياتى فتوهمت بل كدت أعتقد أنى حين ألقى عنى وجهى الطويل الأعجف الملتحى ، سوف أعيش من جديد فى تينك العينين الصغيرتين الزرقاوين ، وذلك الشعر الحريرى المغدودن ، وتلك الأيدى الوردية البضة التى تمسح وجهى فى حنان وتشتبك حول عنقى .

كان يشغلنى مستقبل سونيا . كان أورلوف أباها ، وقد سميت فى شهادة الميلاد باسم كراسنوفسكى ، وكان الشخص الوحيد الذى يعلم بوجودها ويهتم بها — أى أنا — يقف على عتبة الموت . كان على أن أفكر فى أمرها تفكيراً جدياً .

ذهبت أرى أورلوف صبيحة وصولى إلى بطرسبرج . ففتح لى الباب شيخ قوى البنية أحمر العارضين محفى الشارب ، يبدو

كأنه ألمانى . ولم تعرفنى بوليا التى كانت ترتب الثوى ، ولكن أورلوف عرفنى فوراً . قال وهو ينظر إلى متطلعاً ويضحك :

— آه ! السيد الثورى ! أى قدر أتى بك ؟

لم يتبدل منه شئ . الوجه بتطريته وتنفيره ، والسخرية نفسها . وقد ألقى على النضد كتاب جديد كما كان يحدث قديماً ، فيه مدية من العاج . كان بلا ريب يقرأ قبل مجيئى . أجلسنى وقدم إلى سيجاراً ، وقال بلطف لا تجده إلا فى علية الناس ، وهو يخفى الاحساس السئ الذى أثاره وجهى وجسمى الذاوى ، إنى لم أتبدل فى شئ ، وإنه يستطيع أن يحققنى حيثما رآنى برغم لحيتى . تحدثنا عن الجو وعن باريس ، وسألنى ليتخلص بسرعة من السؤال الذى كان يئودنا كلينا :

— هل توفيت زينايدا فيدوروفنا ؟

أجبت :

— أجل .

— أثناء الوضع ؟

— أجل ، أثناء الوضع . وقد ارتاب الطبيب فى سبب آخر للوفاة ولكن . . . خير لى ولك أن نظن أنها ماتت أثناء الوضع .

زفر مجاملا وصمت . ورفرف علينا — كما يقال — ملاك الصمت . قال متطلعاً وقد رآنى أجول بنظرى فى الغرفة :

— أجل ، كل شئ هنا على ما كان عليه — لا تبديل . أنت تعلم أن أبى ترك الخدمة ، وهو يعيش الآن فى عزلة .

ولا زلت أنا فى المصلحة نفسها .أتذكر بكارسكى ؟ إنه كما عهدته دائماً . وقد مات جروزين بالدفتريا منذ عام . ولا يزال كوكوشكين حياً ، وكثيراً مايتحدث عنك . ثم قال وهو يغض طرفه ويتحفظ : مادمنا نذكر كوكوشكين فقد بدأ منذ معرفته بشخصك الحقيقى يحدث الناس جميعاً بأنك هاجمته وحاولت قتله . . . وبأنه نجا بحياته فى عسر .

لم أتكلم .

فقال أورلوف مازحاً :

— إن الخدم القدماء لا ينسون سادتهم . هذا جميل منك . ألك فى شئ من النبيذ والقهوة ؟ سآمر لك بشئ منهما .

— كلا ، أشكرك . لقد أتيت إليك فى أمر هام جداً يا جورجى إيفانتش .

— إن الأمور الهامة لا تروقنى . ولكن يسرنى أن أقوم بخدمتك . ماذا تريد ؟

بدأت أقول فى شئ من الاضطراب :

— إن . . . إن معى هنا ابنة زينايدا فيدوروفنا . لقد عنيت بتربيتها حتى الآن ، ولكنى كما ترى هامة اليوم أو غد،وأحب أن أموت مطمئناً إلى أن أحداً يقوم بأمرها .

تبدل وجه أورلوف قليلا ، وقطب وجهه شيئاً ، وألقى على نظرة سريعة غاضبة . إن « الأمر الهام » لم يؤثر فيه قدر ما أثرت فيه كلماتى عن الموت والهامة . قال وهو يظلل عينيه كأنما يتقى الشمس :

– أجل ، يجب التفكير فى ذلك . أشكرك . أتقول إنها طفلة ؟

– أجل ، طفلة . طفلة رائعة !

– أجل ، دون شك . إنها ليست جرواً بل كائن بشرى. أجل ، يجب أن نفكر فى الأمر بجد . أنا على استعداد لأداء ما على ، وأشكرك شكراً جزيلا .

ثم نهض وأخذ يتمشى فى الغرفة ويقرض أظفاره ووقف أمام رسم . قال فى صوت أجوف وظهره إلى :

– يجب أن نفكر فى ذلك . سأذهب إلى بكارسكى وأطلب إليه أن يذهب إلى كراسنوفسكى . أنا لا أظنه يحجم عن قبول الطفلة .

قلت وأنا أقف أيضاً وأسير إلى رسم معلق فى الطرف الآخر من الغرفة :

– ولكن . اسمح لى . أنا لا أرى لكراسنوفسكى دخلا فى الأمر .

قال أورلوف :

– ولكنها تحمل اسمه بلا ريب .

– أجل . قد يجبر شرعاً على قبول الطفلة . لا أدرى . ولكنى لم آت إليك يا جورجى إيفانتش للحديث فى الناحية الشرعية .

أسرع بموافقتى قائلا :

– أجل ، أجل ، الحق معك . أظن أنى أهذى . ولكن

لا تغضب .سنسوى الأمر كما نهوى جميعاً . إذا لم ننجح فى شئ حاولنا غيره ، فاذا لم ننجح حاولنا ثالثاً . ستحل هذه المسألة الدقيقة على نحو ما . سيرتب بكارسكى كل شئ . تكرم بترك عنوانك وسأخبرك بما استقر عليه رأينا . أين تسكن؟

كتب أورلوف عنوانى ، وزفر ، وقال مبتسما :

— آه ، يا إلهى ! أى عبء فى أن يكون المرء أبا لطفلة! ولكن بكارسكى سيرتب كل شئ . إنه رجل عاقل . هل بقيت فى باريس مدة طويلة ؟

— شهرين .

صمتنا . وكان واضحاً على أورلوف أنه يخشى أن أعود فأستأنف الحديث عن الطفلة . فقال ليحول إنتباهى إلى شئ آخر :

— لعلك نسيت الآن خطابك ، ولكنى احتفظت به . أنا أفهم حالتك إذ ذاك ، ولكن يجب أن أعترف لك أنى أحترم ذلك الخطاب . ومضى يقول ببسمة ساخرة : « الدم البارد اللعين » . « الأسيوى » . « الضحك الغليظ » — كان ذلك رائعاً خليقاً بك . والفكرة الأساسية قد لا تبعد عن الحقيقة ، وإن أمكن للمرء أن يناقشها فلا ينتهى من ذلك — وتردد قليلا — لا أعنى مناقشة الفكرة نفسها بل أعنى نظرتك إلى المسألة — أعنى مزاجك . أجل ، أنت محق فى قولك إن حياتى شاذة منحلة لا فائدة فيها لأحد ، وإن الجبن هو الذى يمنعنى من أن أبدأ حياة جديدة . ولكنك مخطئ كل الخطأ حين

تتناول الأمر جاداً ، وتضطرب له ، وتنتهى إلى اليأس — لست رشيداً فى ذلك ."

— لا حيلة للكائن الحى فى الاضطراب والانحدار إلى اليأس حين ترى أنه هو نفسه يسير إلى الهلاك وأن الناس حوله يسيرون إلى الهلاك أيضاً .

— من يشك فى ذلك ؟ أنا لا أدعو إلى عدم الاكتراث، ولكن كل ما أطلبه هو النظرة الموضوعية إلى الحياة . فكلما كنت موضوعياً قل تعرضك للخطأ . ينبغى على المرء أن ينظر إلى أصل الأشياء ويحاول أن يرى وراء كل ظاهرة السبب الذى تنبعث منه الأسباب الأخرى . لقد غدونا فى الحق ضعافاً خاملين منحطين . إن جيلنا كله إما ضعاف الأعصاب أو شكاءون . إننا لا نعمل شيئاً غير الحديث عن التعب والاجهاد ، ولكن الخطأ ليس خطأك أو خطئى ؛ إننا أضعف من أن نؤثر فى مصير جيل كامل . ينبغى أن نفترض لذلك أسباباً أعظم وأشمل ، ترتكز على علة بيولوجية . نحن ضعاف الأعصاب ، خونة خائرون ؛ ولكن لعل فى ذلك ضرورة وفائدة للأجيال القادمة بعدنا . لا تسقط شعرة من الرأس إلا بارادة إله السماء — وبعبارة أخرى : لا شئ يحدث اتفاقاً فى الطبيعة أو فى المحيط الانسانى . لكل شئ سبب محتوم . وإذا كان الأمر كذلك فلم نشقى أنفسنا ونكتب رسائل يائسة .

قلت وأنا أفكر قليلا :

— هذا كله حسن . أنا أعتقد أن الأمور ستكون أوضح

وأيسر للأجيال القادمة ، وأنهم سينتفعون بتجربتنا . ولكن المرء يريد أن يعيش بمعزل عن الأجيال القادمة لا لخدمتها وحسب . إننا لا نوهب الحياة إلا مرة واحدة .والمرء يريد أن يحياها شجاعاً كامل الوعى متملياً جمالها . إن المرء يريد أن يقوم بدور رائع مستقل نبيل . يريد أن يملى على التاريخ فلا يعود لتلك الأجيال حق فى أن يقولوا عن كل منا إنه عاش صفراً أو شراً من الصفر . . . أنا أومن بأن مايجرى حولنا أمر محتوم لا يخلو من هدف ، ولكن ما لى ولتلك الحتمية ؟ لم أفقد ذاتى ؟

تنهد أورلوف وهو يقف وكأنه يدلنى على أن حديثى قد انتهى :

— لا حيلة لنا فى ذلك .

أخذت قبعتى .

قال أورلوف وهو يشيعنى إلى الردهة :

— إننا لم نجلس معاً سوى نصف ساعة ومع ذلك فقد إتفقنا على مسائل كثيرة فى الواقع . وإذن فسأعنى بذلك الأمر . سأرى بكارسكى اليوم . . . لا تقلق .

وانتظر حتى ارتديت معطفى ، وكان ظاهر الارتياح لخروجى قلت :

— أعد إلى خطابى يا جورجى إيفانتش .

— دون شك .

وذهب إلى مكتبه ، ثم عاد بالخطاب بعد برهة ، فشكرته وخرجت .

وتلقيت منه خطاباً فى اليوم التالى يبشرنى فيه بأن المسألة قد حلت حلا مرضياً . قال إن بكارسكى يعرف سيدة تدير مدرسة أو شيئاً مثل روضة الأطفال ، يقبل فيها الأطفال الصغار . وهى سيدة يمكن الاعتماد عليها ، ولكن قبل الاتفاق معها على شئ يحسن تبادل الرأى مع كراسنوفسكى ، رعاية للمظهر . وقد أشار على بأن أقابل بكارسكى فوراً ، وأن آخذ معى شهادة الميلاد إن كانت عندى . « ثق بما يحمله لك خادمك المخلص من احترام صادق وولاء . »

قرأت هذا الخطاب وقد جلست سونيا إلى المائدة ترنو إلى منتبهة لا تطرف ، كأنها كانت تعلم أن مصيرها يتقرر .



الثمن ١٠ قرشاً